عبد الله القصيمي

تم تحميل هذا الكتاب من
منتديات الإيثار
www.ithar.com

عبد الله القصيمي

هذي هي الأغلال

http://www.ithar.com

منشورات الجمل

عبد الله القصيمي (١٩٠٣-١٩٩٥) أول رجل دين وهابي، من الرعيل الأول، نزع ثوبه الديني، بعد ممارسة طويلة. أقام لسنوات طويلة في الخارج، خصوصاً في بيروت والقاهرة. له العديد من المؤلفات، منها: **البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية** (١٩٣١)؛ **الثورة الوهابية** (١٩٣٦)؛ **الصراع بين الاسلام والوثنية** (١٩٣٧)؛ **كيف ذل المسلمين؟** (١٩٤٠)؛ **هذي هي الأغلال** (١٩٤٦)؛ **العالم ليس عقلاً** (١٩٦٤)؛ **أيها العقل من رآك؟** (١٩٦٤)؛ **كبرياء التاريخ في مأزق** (١٩٦٦)؛ **هذا الكون ما ضميره؟** (١٩٦٦)؛ **العرب ظاهرة صوتية** (١٩٧٧). صدر له عن منشورات الجمل: **لئلا يعود هارون الرشيد** (١٩٩٧) و**عاشق لعار التاريخ** (١٩٩٩).

عبد الله القصيمي: هذي هي الأغلال، طبعة جديدة
جميع حقوق الطبع محفوظة لمنشورات الجمل بموجب اتفاق خاص
كولونيا - ألمانيا ٢٠٠٠
© *Al-Kamel Verlag 2000*
Postfach 210149
50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982
Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

إن الجهل الإعتقادي قد ضرب على قومنا عقداً فوق عقد، وإن أفضل ما يعمله المرء أن يحل عقدة من هذه العقد... إن للوهم الواحد في الحياة ثلاث نتائج:

أولاها أن يعوق عن السير إلى الغاية المنشودة، وثانيها أن يوجه جهة أخرى مضادة، وهذا فيه الإبعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول سدى، وثالثها إفساد العقل، فإن الأوهام تأكل العقول، وكل وهم يأخذ من العقل بقدره. ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزاً عن التمييز ويتخلى في النهاية عن وظيفته... إن ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التي تفقدها أمة فتهوى لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية، وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة... ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم، يستغني عن هذه الأفكار إذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية.

* * *

إن الدين إذا فسد العمل به صار آلة ضعف وإنحطاط.

(أحد فلاسفة الغرب)

* * *

طلاسم هذا الذل دقت وإنما
تفك بسر العلم هذي الطلاسم
يقولون حظ اليعربيين نائم
لقد وهموا فالسعي لا الحظ نائم

(أحد شعراء العصر)

http://www.ithar.com

مرفوع إلى
باعث العرب ومقيم دولتهم الملك عبد العزيز آل سعود

يا صاحب الجلالة:

إن آباء جلالتكم العرب الأحرار لما أن تدفقت جحافلهم المظفرة على بلاد الأكاسرة الجبارين، وعلم رستم قائد الفرس الأعلى أنها الهزيمة لا شك فيها بعث إلى سعد بن أبي وقاص: أن أرسل إلينا من قبلك من نعرف منه الأغراض التي قدمتم إلى بلادنا من أجلها، فبعث إليه سعد رسله، فسألهم رستم فكان جوابهم الذي لم يختلف أن قالوا جميعاً: إن الأغراض التي أحرجتنا وأقدمتنا إلى بلادك هي: أولاً أن نخرج الناس من عبادة المخلوق إلى عبادة الله[1]، وهي ثانياً أن نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، وهي ثالثاً أن نخرجهم من جور الأديان إلى عدل الإسلام.

---

(١) مما يشهد لما بلغه العرب من تربية الشخصية ومن حراستهم لطاقة الفرد النفسية من الضياع والإنهيار والضعف والضعة ما جاء أن عمر بن الخطاب رأى مع عيينة بن حصن أحد سادات العرب في الجاهلية والإسلام جماعة يمشون وراءه فعلاه بالدرة، فقال عيينة اعلم ما تصنع يرحمك الله، فقال عمر أما علمت أنها فتنة للمتبوع مذلة للتابع. وما جاء أنه – أي عمر – ضرب قوماً مشوا وراء أحد الصحابة وقال إنها فتنة للمتبوع ومذلة للتابع. وما جاء عن أحد التابعين، قال خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه أناس فقال لهم ألكم حاجة؟ قالوا لا ولكن أردنا أن نمشي معك قال ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

ولن يتصور المرء تربية أسمى من هذه التربية، ولا إيماناً بالإنسانية المثالية أبلغ من هذا الإيمان، ولا وضعاً لحقوق الفرد في الجماعة وفي الدولة أعظم مما سمعنا. ونحن لا نستطيع أن نعلم ما لهذا من قيمة إلا إذا علمنا فساد ذلك العهد ومظالمه وكيف كان الفرد مسلوب الحقوق بل كيف كان الناس يجهلون أن للفرد حقوقاً أو أنه من الممكن أن يكون له حقوق، ولا إذا علمنا كم كان الآلهة البشريون الذين يجب أن تؤدي لهم حقوق الألوهية، بل وحقوق الربوبية وإلا فالويل لأهل الأرض جميعاً، بل الويل لهم على كل حال. فإن أولئك الآلهة كانوا يغضبون وينتقمون ويبيرون وإن عبدوا حق العبادة، لأن الغضب والإنتقام حقان من حقوق الإله على حسب ما يتصورون... ولولا لم يسد العرب في العهد الذي سادوا فيه لوجب أن نعتقد بأن العالم يسير بتدبير الفوضى، وأنه ليس هناك أسباب تقدم ولا أسباب تؤخر، ولكننا من المؤمنين بالنظام وبالأسباب والمسببات.

ومعنى هذه الكلمات القصيرات أن العرب الأحرار إنما بعثوا إلى العالم في الزمن الذي وجب أن يبعثوا فيه ليبلغوه رسالتهم المحمدية وهي تتلخص في ثلاثة أمور جامعة: الأول: تخليصه من مفاسد عبودية رجال الدين، وعبودية القادة والرؤساء الظالمين، وعبودية سائر المخلوقين، تلك العبودية التي أرهقت العقول والمواهب والقوى البشرية فلم تقدر على الإنبعاث والنهوض إلى جسيمات الأمور، فظل الإنسان الأحقاب والأحقاب عاجزاً عن أن يحقق من معاني الإنسانية وأهدافها سوى مظهرها فحسب. وثاني الأمور الثلاثة الجوامع: تخليصه من ذلك النظام الحكومي الفاسد الذي رماه بالفقر والضيق والشقاء، وكل تلك التي كانت – وما زالت – مبعث الإنحطاط والفساد، ومصدر الفوضى والشر الكثير. وثالث الأمور الثلاثة: تخليصه من المعتقدات والمذاهب والأديان الواهنة التي جردت الإنسان من كل فضيلة، وعطلت فيه كل نبوغ وعبقرية وإنطلاق في تحصيل المعاني الإنسانية المهذبة لما في هذه المعتقدات والمذاهب والأديان من الجمود والتضليل والتعويق والتخدير للقوى الفاضلة.

يا صاحب الجلالة:

إن العرب الكرام لما أن آمنوا بهذه المعاني والمبادىء واندفعوا إلى الدنيا ليشركوها معهم في الإيمان بها أرغموا التاريخ العالمي العام أن يكتب لهم تاريخاً وأن يسجل لهم إنقلاباً كاد في سرعته وقوته ومفاجأته أن يخرج عن جميع سنن التطور التي عرفت حتى اليوم: إنقلاباً بهر الكثيرين من العلماء والباحثين الذين يحاولون التغلغل في الأسباب والمسببات، فعجزوا أن يجدوا له تعليلاً بين العلل والمعلولات، فذهبوا يقولون إن العرب كانوا – فيما سمي الجاهلية وقبل الإسلام – أمة راقية متوثبة لمكانها الجديد من القيادة والصدارة. لأنه من غير المعروف في نواميس التطور المعروفة، ولا في تواريخ وقيام الأمم وسقوطها أن شعباً من الشعوب يتخلى فجأة عن عزلته السياسية وعن أميته التي تكاد تكون شاملة ليثب وثبة واحدة تحله موضع الزعامة العالمية.

ولكن الذي فهمناه، والذي يجب أن يفهمه الناس جميعاً هو أن للجماعات دائماً جانبين من القوى والمواهب: جانب زاهر بارز، لأنه وجد ما يظهره وما يبرزه، أو لأنه لم يجد ما يمنعه الظهور والبروز، وجانب خفي مستور كامن، لأنه لم يجد ما يظهره، أو لأنه وجد ما يمنعه من أن يظهر ويبرز... والقوى البشرية

http://www.ithar.com

تشبه في كمونها وبروزها قوى الأرض وقوى الطبيعة أجمع. ومن المعلوم أن قوى الأرض، وكل القوى أيضاً، تظل كامنة ساكنة ما وجدت ما يمنعها الظهور، أو ما لم تجد ما يعمل على إظهارها وبعثها. وقد ظل النفط في الجزيرة كامناً مستوراً منذ وجد، كأنه لا شيء فيها، وكأنها لا تحمل في أحشائها جنيناً نفيساً كل يتمنى حضانته وكفالته، حتى هيأ الله لها جلالتكم، فأخذت تخرج كنوزها من النفط وغيره، وأخذ العالم يؤمن بقواها الكامنة الطبيعية. وهكذا هي من الناحية الزراعية... والأمة العربية كانت في عصورها التي عرفت بالجاهلية أمة ذات قوى كامنة هائلة كمون كنوزها الطبيعية في أرضها. وكانت عوامل هذا الكمون وأسبابه معروفة أو على الأقل موجودة، فلما زالت هذه العوامل والأسباب برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وجاء ما بعث الكامن منها وثبت تلك الوثبة التي حار في تعليلها وفهمها الباحثون. ولكن لا معنى للحيرة في هذه الوثبة إلا إذا كان من الممكن الحيرة في خروج النفط في الجزيرة على عهد جلالتكم لأنكم أمرتم بإخراجه وهيأتم الأسباب التي تخرجه والقوى التي تبعثه. ومثل هذا كان العرب في المملكة السعودية قبل أن يوحدهم الله على يد جلالتكم. فقد كانوا ذوي قوى كامنة واستعداد مستور. فلما آن الأوان والفضل لله ثم لجلالتكم، طفقت هذه القوى تبرز وهذا الإستعداد يظهر... والعرب اليوم – بل والمسلمون كافة – متخلفون عن الأمم الغربية تخلفاً ظاهراً، لا نقول في شيء دون شيء، بل يجب أن نقول وأسفاه في كل شيء. ولكن هذا التخلف ليس طبيعياً، وإنما هو تخلف يشبه العرب قبل عهد جلالتكم عن العالم من الناحية الإقتصادية. ويشبه تخلف العرب قبل الإسلام من الناحية السياسية والعسكرية عن الرومان والفرس دولتي العالم في ذلك العهد، أي إنه تخلف ظاهري فقط لوجود أسباب معينة عارضة وهم ينطوون على مواهب وقوى كانت تستطيع إلحاقهم بمن سبقوهم إذا أخرجت وأبرزت، وتستطيع القضاء على هذا التفاوت بينهم وبين الآخرين... ولقد صار معلوماً أن عظمة الشعوب ليست في الإستقلال السياسي، ولا في وفرة العديد، ولا في ثروة البلاد الطبيعية، ولا في الوطنية الباسلة، ولا في الحماسة المتوقدة، ولا في الإتفاقات وقيام الوحدات... وصار معلوماً أن شيئاً من هذا لا يهب الشعب تلك المنزلة الدولية الرفيعة المحترمة، ولا ذلك التأثير القوي في المجتمع العالمي. بل صار معلوماً أن أمراً من هذه الأمور – بل هذه الأمور كلها

مجتمعة – ليس في طاقتها أن تحافظ على الإستقلال السياسي إذا كان موجوداً، ولا أن ترده إن كان مفقوداً، ولا أن تصونه من عدوان وعادين... ولكن عظمة الشعب الحقيقية التي تطأطىء الدنيا أمامها إجلالاً ورهبة تتجلى في شيء واحد لا ثاني له: هذا الشيء الواحد هو قدرة الشعب الذاتية على الإنتاج العقلي والمادي من ناحية الأفراد. فالشعب الذي يتفوق أفراده في هذا الإنتاج هو الشعب الذي له التفوق المطلق، وله السيادة المطلقة، وهو الشعب الذي تخفض له الدنيا رأسها... والفرق بيننا وبين شعوب أوروبا وأمريكا لا يعدو الفرق بين أفرادنا وأفرادهم في هذا الإنتاج. فإنهم لما وفر إنتاج أفرادهم العقلي والمادي وضعف إنتاج أفرادنا – أو أضحى مفقوداً – أضحوا أقوى منا في كل شيء، فسادوا وتأخرنا. والقوي هو سيد الضعيف في قانون الأزل وقانون الأبد أيضاً. وهو قانون مطبق على الإنسان وعلى الحيوان وعلى النبات وعلى الجماد، بل وعلى كل شيء. فهو قانون خالد من قوانين الطبيعة الخالدة. وقوانين الطبيعة هي بالنسبة لها كالوجود، لا تتخلى عنها ما دامت موجودة، كما أنها لا تتخلى عن وجودها ما دامت كذلك. وإذا ما سألنا العلماء اليوم: لماذا صارت الشمس هي المركز للمجموعة الشمسية، ولماذا صار أكبر نجم في كل مجموعة من المجاميع الفلكية الأخرى هو المركز الذي تدور حوله الأتباع والأقمار وتدين له وتنجذب إليه، ولا تستطيع مفارقته، قالوا لنا هذا قانون الطبيعة وقانون القوة. وإذا سألناهم: هل من الممكن التملص من القوانين الطبيعية، أجابونا بلا طبعاً. وكما أن العشرين أقل من الأربعين، وكما أن هذا العدد لا يمكن أن يكون مساوياً لهذا العدد بحال من الأحوال، فمثله الشعوب التي هي أكثر إنتاجاً وأضخم قوة، لا بد أن تكون سيدة الشعوب التي هي أقل منها في هذا الإنتاج وأضعف منها في هذه المقدرة. ولا يمكن أن يقوم التساوي بين هذه وهذه إلا أن يكون بالكلام مثل أن يغلط طفل فيقول إن العشرين أكثر من الأربعين أو أنها مساوية لها. ولكن هذا القول لا يغير الحقيقة الأبدية وهي الإختلاف والتفاوت.

ما الذي أعطى الطوائف اليهودية هذه المكانة الدولية وهذا الإعتبار الدولي اللذين لم ينلهما كثير من الشعوب المستقلة سياسياً؟ إنه مقدرة هذه الطائفة العجيبة على الإنتاج الفردي.

فعلينا إذن أن نعرف كيف يعظم إنتاج الفرد الذاتي، وعلينا أن نحشد كل

http://www.ittar.com

قوانا لتحطيم ما من شأنه أن يضعف هذا الإنتاج، ولتحطيم القيود التي تعوق القوى الفردية عن القيام بوظائفها الإلهية، وعن إخراج أفضل ما فيها من إستعداد وآخر ما عندها من طاقة.

وفي هذا الكتاب الكشف عن الأسباب والعوامل التي قضت علينا بهذا التخلف وبهذا التفاوت بيننا وبين الغربيين والتي أضعفت الإنتاج لدينا وجعلتنا عاجزين عن اللحاق بالركب البشري. ولكن العرب والمسلمين يحتاجون من أجل إفهامهم هذه الحقيقة إفهاماً عاماً شاملاً إلى قيادة بارزة، وإن الآمال لترنو – لأسباب واضحة جلية – إلى جلالتكم، فجئت أرفع إليكم الكتاب، سائلاً الله أن يسعد القائد وأن يحفظه ويسدده، راجياً أن أكون قد قدمت لأمتي وديني ما فيه نفع أو ما فيه دفع ضر. وقد آن أن يقبس الناس من تلك الشعلة المقدسة التي أوقد جذوتها مصلح الجزيرة العظيم الشيخ محمد بن عبد الوهاب.[1]

---

(١) ها هنا ملاحظة خليقة بالتفكير. ذلك أنه قد قام في أوقات كثيرة متقاربة ومتباعدة، وفي بلاد متعددة رجال مخلصون يدعون إلى ما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وقد بذلوا كل إخلاصهم وعلمهم رجاء أن يصيبوا نجاحاً، ولكنهم قد أخفقوا جميعاً: أخفقوا سياسياً وأخفقوا دينياً: فالأمراء والملوك والرؤساء رفضوا هؤلاء الدعاة ورفضوا دعوتهم، بل وتألبوا عليهم مع العامة: فسجنوا وآذوا فريقاً منهم، وازوروا وتباعدوا عن فريق آخر. وبهذا عدوا مخفقين سياسياً. أما دينياً فإن دعوتهم لم يكتب لها النجاح ولا القول لدى العامة والجماهير، بل عادوها وعادوا أصحابها وأصروا على البقاء في ما كانوا فيه. وبهذا صاروا فاشلين دينياً.

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد كتب له ولدعوته النجاح المطلق: أما من الناحية السياسية فإن آل سعود العظام قد شادوا وأقاموا صروحها على دعوته منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري حتى اليوم. وقد أوى أمراء آل سعود آل الشيخ محمد وقربوهم وأكرموهم وأخذوا عنهم ولا يزالون يفعلون ذلك، ولم يحاولوا التخلص منهم في وقت من الأوقات لا في أوقات الشدة ولا في أوقات الرخاء. وأما من الناحية الدينية فقد كان النجاح عظيماً. ذلك أن الناس هناك خاصة وعامة قد آمنوا بهذه الدعوة وقبلوها ظاهراً وباطناً قبولاً لا يشوبه شيء من التردد أو الريب. وإنه لا يخطر على بال إنسان واحد اليوم – كما لم يخطر قبل اليوم – أن يرفض هذه الدعوة أو أن يشك فيها. فالإيمان بها كان إيمان إقتناع لا إيمان اضطرار أو حاجة أو ظرف من الظروف. ومن أكبر الدلائل على ذلك أن آل سعود قد غلبوا على أمرهم في عهدين معروفين، وخرج حكم الجزيرة من أيديهم إلى أيدي قوم آخرين هم خصوم لهذه الدعوة، ومع هذا فإن الناس هناك بقوا مستمسكين بالدعوة مؤمنين بها كما كانوا في عهد آل سعود المؤيدين لها... فنجاح الشيخ إذن كان نجاحاً مطلقاً، وإخفاق الآخرين إذن كان إخفاقاً مطلقاً، فما الأسباب؟ أما إخفاق الآخرين في كل زمان ومكان فلا بد من عزوه إلى أن الناس الخاصة منهم والعامة في تلك البلاد كانوا غير

مستعدين إستعداداً حاضراً لقبول فكرة التوحيد الخالصة. بل كانت هناك مواقع مؤلفة من النظام الإجتماعي القائم، ومن التربية الدينية المختلة ومن الوراثة ومن البيئة ومن التفكير العام، تحول بينهم وبين الإيمان بمبدأ التوحيد النقي. ومن أجل هذا نجد أكثر الذين يقبلون هذا المبدأ إجمالاً من أهل هذه البلاد يدخلون عليه في التفصيلات ما ليس منه، أي أنهم في الأكثر لا يستطيعون إدراك هذا التوحيد وهذا السمو الفكري إدراكاً صحيحاً كاملاً مبرأ من شوائب ما يضاده وينافيه. وسبب هذا هو عجزهم عن التحرر من سيطرة المواقع الآنفة وهي النظام الإجتماعي والتربية الدينية والتفكير العام والبيئة والوراثة. هذه هي أسباب فشل أولئك الدعاة المحزن. ولا يزال هذا الفشل يتلقى كل من يحاول ما حاوله أولئك الدعاة.

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد كان نجاحه التام يرجع إلى أمرين أساسيين أحدهما: أن الناس في جزيرة العرب الخالصة كانوا كافة مستعدين لقبول هذه الدعوة وللإيمان بها، ولكن لماذا كانوا مستعدين دون غيرهم؟ كانوا مستعدين لأن النظام الإجتماعي القائم عندهم والتربية الدينية والتفكير العام والبيئة والوراثة: لأن ذلك كله لا يأبى قبول هذه الدعوة بل إنه يقبلها ويهضمها بسهولة ويسر، إذ لا تنافي ولا تنافر بينهما بل بينهما التوافق التام... ومن ثم فإن أجزاء معينة من جزيرة العرب عجز أهلها عن فهم هذه الفكرة وعن الإيمان بها مع كثرة من جاؤهم من أنفسهم بالدعوة إليها. وسبب هذا أن رسوماً دينية، ونظماً إجتماعية أجنبية، وغلت عليهم بلادهم في عصور مختلفة فأثرت في تفكيرهم وفي تربيتهم الدينية تأثيراً كان هو العائق الأكبر الأظهر.

أما الأمر الثاني من الأمرين الأساسيين في نجاح الشيخ محمد فهو أمر خاص به وبأسلوبه العام وبحياته الخاصة والعامة.

إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان أحد أولئك الرجال القليلين الذين تتكافأ قواهم العقلية والعلمية والخلقية فيصيبون النجاح الذي يبغون. وإن كل إنسان – سواء أكان عادياً أم كان عبقرياً – له قوى مختلفة، أحياناً تكون متكافئة، وأحياناً تكون متنافرة متفاوتة. ولا ينجح من الناس في الغالب – سواء في ذلك الأفراد والجماعات – النجاح التام الصحيح إلا من تكافأت قواه تكافؤاً تاماً. فإذا كان للإنسان قوة علمية غير مكافئة لقوته العقلية أو لقوته الخلقية مثلاً، أو كان العكس لم يكن إنساناً مرجواً له النجاح المطلق في الأكثر ولا مرجوة منه الفائدة المنشودة. لأن قواه حينئذ تتهادم ويدمر بعضها بعضاً.

أما إذا تكافأت هذه القوى فإنها كلها حينئذ تنطلق في سبيل واحدة وقوة واحدة إلى الغرض الأقصى فتبلغه. والأمم في هذا كالأفراد سواء. وقد رأينا كيف صرعت أمة من أكبر الأمم وأعظمها في قوتيها العسكرية والعلمية، ولكن هاتين القوتين كانتا فوق قوتيها السياسية والخلقية. فلم يكن بين قواها تكافؤ فتنافرت وراحت تتخبط بين هذه القوى تخبط من وقع بين قوتين متنافرتين حتى خرت صريعة خائرة متهدمة. وهي ليست أمة بل أمم، وإنما أردنا المثل فقط.

أما الأفراد الذين يسقطون في الميدان وتتلقاهم الخيبة والفشل أينما وجدوا وذهبوا على رغم المواهب الهائلة التي امتازوا بها لأنها لم تجيء متكافئة فكثيرون جداً، وطريق الحياة يغص بهم دائماً، وهم يشاهدون كل وقت مجندلين دون أغراضهم وأهدافهم. وإن أغلب الناس من هذا القبيل.

http://www.ithar.com

قبل البدء

لست أعلم قضية أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها بينما هي أولى القضايا بالتفكير والعناية والبحث من هذه القضية. وذلك أن جموعاً بشرية هائلة – قيل أن أعدادها تبلغ أربعمائة مليون منتشرة في سهول فسيحة واسعة من أفريقيا وآسيا وأوروبا أيضاً، تدين بدين مبادئه السليمة الأولى هي أسمى ما يتصوره العقل البشري من القوة والحث على مواصلة السير في سبيل المجد والكمال – عاجزة منذ مئات السنين عن اللحاق بالركب الإنساني المغذ الخطا إلى هذه الحياة التي تنفجر كل يوم عن ينبوع دفاق بالمثل الإنسانية أو العلمية التي من ملكها فقد ملك ناصية هذا الوجود واحتكم فيه وفي من فيه من حيوان وجماد ونبات... وقد غلبت هذه الجموع على أمرها في كل معنى من معانيها وضرب من ضروب حياتها... فهي من الناحية السياسية خاضعة، بل خاضع ما تحت أقدامها إما بالفعل وإما بالقوة، كما يقول المناطقة، للسلطان الأجنبي – ومن الناحية العلمية عاجزة عن أن تقدم للتراث العلمي شيئاً يمكن أن ينسب إليها، وعاجزة عن أن تستغني عن الآخرين في أمر من أمورها الدقيقة أو الجليلة – وهي من الناحية الصناعية عاجزة عن إيجاد الملاعق لأفواهها وإبر لأثوابها – ومن الناحية الزراعية عاجزة – لولا الآخرون – عن الإنتفاع الصحيح بغزارة مياهها وخصب أرضها – أما من الناحية التجارية فإن أكبر عاصمة من عواصمها عاجزة عن أن يكون لأحد أبنائها متجر واحد يضارع أحد متاجر هؤلاء الغزاة أو يغني عنه... وهكذا هي في كل وجه من وجوه حياتها وغرض من أغراض وجودها.

ومما يوجب الدهشة والإستغراب أن هذه الجموع الهائلة عاجزة أفراداً كما هي عاجزة أمماً، فلم يستطع أفرادها ومهاجروها في أوروبا وأمريكا أو إحدى القارات الأخرى أن يوجدوا لأنفسهم مكاناً في هذه الحياة تتعلق به الأبصار أو يبعث على الإعجاب أو يؤثر في المجموع الصناعي أو التجاري بوجه من وجوه التأثير كما فعل غيرهم... وإن العجب ليأخذ منا كل مأخذ – كما يجب أن يذهب الألم في نفوسنا كل مذهب – إذا نظرنا لرأينا الرجلين من سوريا أو لبنان أو غيرهما، أحدهما مسلم والآخر مسيحي، يخرجان يضربان الأرض، يطلبان

الثراء والمجد، فيهبطان أمريكا أو يهبطان وطناً إسلامياً كمصر مثلاً. فما هو إلا أن ينغمس ذلك المسيحي في ذلك المجتمع القوي اللجب، ثم لا يلبث أن يرفع رأسه عالياً، فإذا به قد دفع الجموع عن موضعه، وإذا به يذكر حينما يذكر أصحاب رؤوس الأموال الضخمة وملوك الصناعة المتوجون بتاج العصامية البراق... أما صاحبه المسلم فيبقى في مهاجره ما بقي بدون أن يحس له وجوداً كما لم يحسس له وطنه حينما خرج منه فقداً ما عدا النادر القليل.

وقد أخذ هذا التفاوت بين الفريقين في الوطن الواحد ومن العنصر الواحد يتعاظم يوماً فيوماً، حتى أصبح – ملحوظاً جداً في جميع الأقطار التي يسكنها المسلمون وغيرهم أن غير المسلمين يفوقون المسلمين في كل ضروب التقدم وفي كل وجوه الحياة بشدة وقوة، سواء في ذلك الجوانب المادية والجوانب المعنوية... وهذا التفاوت العجيب لم يقتصر على الشرق دون الغرب أو على البلاد العربية دون الأخرى غير العربية، بل يوجد في أوروبا وأمريكا كما وجد في الشرق العربي وفي الشرق غير العربي من الشعوب الآسيوية والإفريقية.

وقد التقيت هذا العام في الحجاز بأناس ممتازين وآخرين عاديين من بلدان إسلامية كثيرة، فتحدثنا طويلاً ومرات كثيرة في هذه المسألة، فوجدت كلمتهم متفقة على وجود هذا التفاوت بأشكال وصور قوية بارزة في كل مكان، وإن كانوا حينما حاولت أن أفهم منهم العوامل والأسباب لذلك لم أجد عندهم شيئاً، بل وجدتهم في الأكثر يذكرون أشياء هي بعيدة جداً عن المسألة وعن أن تكون أسباباً للمسألة، زاعمين أنها هي الأسباب الحقيقية. وهذا واأسفاه مما يبعد عن معرفة المرض الحقيقي، ثم مما يبعد عن نيل الشفاء أو التماس الشفاء... وإن الأمراض في نفسها خطيرة مخيفة، ولكن أخطر هذه الأمراض أن يكون المرء مريضاً ثم لا يدري ما المرض، بل يذهب بظنه شيئاً آخر، ويظل يتمنى العلاج من ذلك الشيء الآخر حتى يهلك، لأنه في نفس الأمر عاجز عن العلاج وعن الشفاء من تلك الأمور التي زعمها أمراضه... والخطوة الأولى اللازمة لمحاولة العلاج – أو لإفادة العلاج – هي معرفة المرض. وقد كان خطب الإنسانية في مراحل وجودها الأولى في عجزها عن معرفة أمراضها، ثم في عجزها عن الخلاص منها لو عرفتها قبل تقدم المباحث الطبية والكشوف العلمية... إنها ظلت كل تلك الأحقاب الغابرة جاهلة بأمراضها وبأسبابها، ثم جاهلة بالعلاج الذي فيه

ضمان الشفاء... وستظل الإنسانية أيضاً تعاني أمراضها الإجتماعية والعقلية والإعتقادية حتى تتوصل إلى معرفتها معرفة صحيحة جازمة، وإلى تعيينها تعييناً قاطعاً صحيحاً، وحتى تتوصل إلى معرفة الخلاص والشفاء منها. وإذا كان صحيحاً قولهم: إن تشخيص الداء نصف العلاج فإن أصح منه أن يقال: إن العلاج مستحيل ما لم يشخص الداء... فعلينا إذن أن نعرف أمراضنا وأن نعمل على معرفتها إذا كنا راغبين حقاً في أن نكون قوماً صالحين نافعين لأنفسنا ولغيرنا في هذه الحياة.

يوجد اليوم قوم يعدون من خيرة المسلمين تعليماً وأخلاقاً، ينادون ما وسعهم النداء: بأن جماع علل المسلمين هو سفور المرأة وإختلاطها بالرجل، ويزعمون أنهم لو رجعوها إلى البيت وإلى الحجاب لاستطاعوا بسهولة وسرعة أن يثبوا على قمة المجد الدولي... وقد عبأ هؤلاء القوم كل قواهم للنهوض بهذه الفكرة.

ولا يمكن أن يصدق هذا القول إلا إذا صدق القول: بأن سواد جلود الزنوج هو السبب في حرارة الشمس وفي غزارة ضيائها. ويجب أن يعلم هؤلاء الإخوان الفضلاء أن الأجنبي الظافر حينما اعتدى على بلاد المسلمين وسلبهم حريتهم كانوا – أي المسلمون – آخذين بالحجاب وبالتفريق بين الرجل والمرأة بلا هوادة ولا اعتدال، وأن يعلموا أيضاً أنه لا تزال توجد إلى اليوم أمم مستمسكة بهذين الأمرين بعناد وشدة. ومع هذا فإنها – أي هذي الأمم – تعد بين الشعوب نموذجاً رائعاً للهوان والضعف والجهل والمسكنة...

ويوجد إلى جانب هؤلاء جماعات أخرى عظيمة الشأن من حيث العدد والحماسة، تكاد في هذه الأيام تقيم الدنيا وتقعدها – وأنا أعني كما لا يخفى دنيانا فقط لا دنيا الأعداء – مبشرة برسالة روحية خلقية، استاقت في طريقها جماهير الشباب، وأوشكت تصيب معظمهم بنوع من جنون الفكرة التقي البار، أو الجنون المقدس.

خلاصة هذي الرسالة: أن طريق المجد الإسلامي المنشود ينحصر في الرجوع إلى الأخلاق الدينية الأولى، وفي تنفيذ الحدود الشرعية، وفي أداء الزكاة، وفي إقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية، ثم في الإيمان بالله والجهاد الديني في سبيله... وقد انطلقوا في كل مكان يبشرون بهذه الرسالة،

http://www.ittar.com

وأخذوا بأساليب قوية بارعة نشيطة لنشرها والدعوة إليها حتى كثر المؤمنون بها والمعجبون والمثنون... ويا ليت هؤلاء يعرفون أن الأخلاق الدينية المحض وكل ما يدعون إليه ويبشرون به من الفضائل هو سبيلنا بلا شك إلى دخول ملكوت الله، وإلى امتلاء أنفسنا بالجمال والرضا والثقة... ولكن السبيل إلى المجد القومي المطلوب ينحصر في أشياء أخرى: في الأخلاق الصناعية والتجارية والإقتصادية والمادية والعلمية... وإذا كان لا أمل لنا في أن يخرج صيام غاندي الإنجليز من الهند، فإنه كذلك لا أمل لنا في أن نخرجهم هم وسواهم من الغاصبين بصلاتنا أو صيامنا أو إيماننا المجرد، أو بأخلاقنا الدينية الصرف، فالأخلاق الصناعية الإقتصادية العلمية المادية هي التي تعز الشعوب وتحلها الذروة... ويؤسفنا أننا لا نزال محتاجين إلى فهم هذي الحقيقة وإلى تفهيم الآخرين إياها... أما الأخلاق الدينية المحض فتلك أشياء أخرى، لها نتائج أخرى. ولهذا فإن المستعمرين والغاصبين والمنافسين وغيرهم من ضروب الأعداء، لا يرهبون هذي الأخلاق ولا يخشون أصحابها، ولا يؤلمهم كثرتهم وكثرتها، بل لعلهم يعملون على أن تكون الشعوب التي يريدون افتراسها أو بقاءها تحت سلطانهم وعدوانهم، متدينة مسرفة في تدينها، محافظة على كل فضائلها الدينية... وإنما يخشى هؤلاء الأخلاق الصناعية المادية العلمانية، لأنهم يدركون ما لهذه من قوة ومنافسة.

ولعله من الواضح المستغني عن كل بيان أن ألمانيا واليابان وأشياعهم إنما انتصروا في بداية هذه الحرب المنتهية بصناعاتهم وجيوشهم المزودة بالقنابل والطائرات والمدافع والدبابات الكثيرة المتفوقة، وأن خصومهم إنما انتصروا في آخر الجولة بهذه الأمور نفسها، وأن الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهها لم تتدخل لا في البداية ولا في النهاية.

أمريكا اليوم مثلاً هي أقوى منا – مع الفروق المخجلة بلا شك – فإلى ماذا ترجع قوتها وتفوقها علينا، وإلى ماذا يرجع ضعفنا وعجزنا؟ من الجلي المفروغ منه أن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب إيمانها بالله، أو بسبب أخلاقها الدينية أو الروحية... وإنما نالت هذا التفوق بأخلاقها الصناعية والإقتصادية والمادية والعلمية، وأننا إنما عجزنا عن اللحاق بها لعجزنا عن اللحاق بأخلاقها هذي، لا لعجز في روحانيتنا أو في إيماننا بالله أو في فضائلنا الدينية... لا أحد اليوم

يستطيع أن يماري في هذي الحقائق بعد أن ظفرت روسيا وجيوشها بأعظم نصر عرفه البشر مع أن هؤلاء سلبيون من هذه الناحية تماماً.

فطريق المجد القومي إذن يجب أن يكون معروفاً واضحاً متفقاً عليه، ويجب أن يعلم أنه غير ما يبشر به هؤلاء الإخوان الصالحون... إن كان هؤلاء الإخوان يعرفون هذا الطريق ولكنهم إنما يدورون حولها الآن اضطراراً، وإنهم بعد حشد الحشود سيتعرفون إلى طريقهم الحقيقي: هذا هو الأمر الذي ينوون فما أبعد ما ذهبوا بأنفسهم وبأتباعهم. ونظنه مخطئاً جداً من حاول أن يقوي نظره بقراءة الحروف الصغيرة تحت النور الضئيل...

كم تستولي علي شتى العواطف إذا رأيت هؤلاء الشبان المخلصين المتوقدين حمية وغيرة يقادون بهذه الأفكار، دون أن يدروا من أمرها سوى أنها تسرف في إعطائهم الوعود السخية الكريمة الرخيصة، وسوى أنها تؤكد بلوغهم كل ما يرجون ويحبون من آمال بأضعف الأسباب وأصغرها... إني لأهتف أحياناً كثيرة إذا رأيت هؤلاء المؤمنين – كما كان يهتف أحد أدباء فرنسا إذا رأى أمثالهم: يا للسذاجة المقدسة، ويا للإيمان المخدوع!

يقال إن الدعاة ينجحون كثيراً ويلقون المؤمنين الكثيرين بهم بين الشعوب الإتكالية التي يعتمد أفرادها على الآخرين في تحقيق آمالهم لعجزهم هم عن تحقيقها. فأمثال هؤلاء يسارعون إلى تصديق كل من جاءهم بفكرة أو مبدأ أو دين أو مذهب، زاعماً أنه سيعطيهم كل شيء إذا ما اتبعوه وآمنوا به وأخلصوا في إيمانهم... ويسارعون إلى التنازل لتبوعهم أو قائدهم أو زعيمهم أو مرشدهم عن كل شيء فيهم، ويصبحون له آلات إنسانية تقاد بأذنيها لا بعقلها، ويهبونه منهم الطاعة العمياء. وهؤلاء يعسر جداً إفهامهم أو إخراجهم من قبضة هذا المؤمن به، وتذهب الحجج والبينات لديهم عبثاً ولغواً... فعلينا نحن إذن أن نتوقع رخص الإيمان ورخص المؤمنين ما لم نصبح أمماً إستقلالية ذاتية نعتقد أنها تبلغ آمالها بأعمالها وأفكارها وقواها الذاتية الفردية، لا بإتباع الدعاة والرؤساء الكرماء بالكلام... إن أعاصير رجعية مجنونة لتهب في هذه الآونة الأخيرة على مصر التي رضيناها لنا زعيمة، وإنها لتترنح تحتها. ولا ندري أتثبت لها أم تتهاوى تحت ضرباتها الوجيعة.

لست أحاول هنا وقف العاصفة، فهي لن تقف، ولكنها ستتكسر على

http://www.ittar.com

الشواطىء الصخرية، وستذهب مزتها في إنطلاقها في هذا الفضاء الرحيب، وفي دورانها حول نفسها. وحينئذ نرجو أن توجد العوامل التي تمنع هبوبها من جديد، أو لا توجد العوامل التي تجعلها تعصف مرة أخرى.

ولا أجد مفراً من أن أذكر هؤلاء الإخوان أن الروح الدينية كثيراً ما تكون سلبية تجاه الحياة، وعطلاً في أصحابها إن لم تشايعها روح متوثبة من المادية الواقعية الصارمة ومن التربية العالية... وفي الحق أنهم قليلون جداً – إن لم يكونوا غير موجودين – أولئك الذين استطاعوا أن يجمعوا بين التدين وبين الإبداع في الحياة والنهوض بها. ولهذا فإنه ليكاد يعجز الباحث أن يجد متديناً حرفياً استطاع أن يكون في الحياة شيئاً مذكوراً، وأن يتقدم بها ويعطيها ما ليس عندها، ونجد كل الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والأساليب المبتكرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالإنحراف عن الدين وبالتحلل منه... والعيب بلا ريب عندنا ليس عيب الدين ولكنه عيب المتدين العاجز عن التوفيق بينه وبين مطالب الحياة... وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء. ويروي أن زياداً – ذلك القائد الداهية العربي المشهور – قال: أما عبد الله بن عمر فقد قعدت به تقواه – يعني عن النهوض إلى السيادة والمجد – وقال المتنبي يصف الرجل الذي سيكون عونه في إنتزاع الملك:

شيخ يرى الصلوات الخمس ناقلة
ويستحل دم الحجاج في الحرم

يريد أنه غير متدين، لأنه يرى المتدين غير أهل لما يطلب ويراد منه...

ولما قال أحد الشعراء يمدح المأمون:

أمسى إمام المهدي المأمون مشتغلا
بالدين، والناس بالدنيا مشاغيل

غضب وقال: ما زدت على أن جعلتني عجوزاً عاجزة عن الحياة.

فطبيعة المتدين – غالباً – طبيعة فاترة، فاقدة للحرارة المولدة للحركة، المولدة للإبداع... ومن ثمة فإنك غير واجد أعجز ولا أوهن من هؤلاء الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية... ونرجع لنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له، ولكن الذنب ذنب النفس البشرية التي لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين، والتوفيق بين الروحين روح الدين، وروح العمل للحياة. وسيكون عملنا

هو محاولة التوفيق.

وإن مما يؤلم ومما يتعجب منه حقاً أن هذا الإنهيار الشامل لم يكن وقفاً على الشعوب الإسلامية فحسب، بل شملها وشمل الشعوب المؤلفة من المسلمين وغير المسلمين فقد اجتاح الضعف والإندحار والسلطان الأجنبي كل الشعوب الموحدة الإسلامية والشعوب المختلطة حتى لم يفلت صغير ولا كبير من هذه القبضة المحكمة القوية، ومن هذه البطشة القاصمة.

ومن المشاهد الموجعة أن الشعب من هذه الشعوب يظل جامداً في موضعه لا يتقدم، بل ولا يتحرك ولا يأخذ بشيء من وسائل الحضارة والعمران القوي ولا بالعلم الحديث – أو لا يطلي مظاهره ومظاهر بلاده بذلك – إلا إذا وصل نفسه بهؤلاء الغرباء واستعانهم واستقدمهم كمعلمين مرشدين أو قدموا هم غزاة فاتحين. وصار مقدار ما يأخذ الشعب وما يكسب وما يستفيد من هذه الحضارة وهذا العلم وذلك العمران مقيساً موزوناً معدوداً بالسنين والأعوام التي قضاها في كفالة هؤلاء، وبعدد الشركات والمتاجر والمصانع والخبراء الفنيين الذين استخدموا في وطنه وأراضيه، أو على الأصح الذين سادوا في أراضيه. فكلما كثرت هذه الأعوام والمتاجر والشركات وزاد عديد هؤلاء الخبراء والفنيين في وطن من الأوطان كثر بقدر ذلك مظاهر حضارته أو طلاء حضارته كما هو الواجب أن يقال، وكلما نقص ذلك نقص ذاك... ولهذا فإنك إذا أردت أن تسأل: أي هذه الشعوب والأوطان أكثر حضارة وعمراناً، أو أيها أكثر استعارة للحضارة والعمران، أو أيها أقدم في ذلك وجب عليك أن تقول: أي هذه الشعوب والأوطان اتصل بأوروبا أول، وأيها أكثر إنتفاعاً بشركات أوروبا ومتاجرها وخبرائها وأموالها... وما أحسب بلداً من بلاد المسلمين استطاع أن ينجو من هذا الناموس الشامل الصارم... وقد شوهد وإلى اليوم لا يزال يشاهد أن الأمة التي تختار العزلة التامة والإكتفاء الذاتي تظل محرومة من كل أسباب هذه الحياة الحاضرة، محرومة من كل ما يسمى تقدماً، متمسكة بخيوط تلك الحياة القديمة الواهية. ونحن نعرف وأكثر القراء في ظني يعرفون أن أمة من هذه الأمم اختارت لنفسها البقاء خارج هذه الحلقة المضروبة فصارت مضرب الأمثال في ضعف الشأن وسوء الحال حتى إن بلادها كلها – وقد كانت في أزمان متقادمة موئلاً للحضارة والسلطان والمجد – لا يوجد فيها اليوم طبيب واحد ولا مدرسة

http://www.ithar.com

واحدة ولا صحيفة واحدة وسكانها لا يقلون عن سبعة ملايين من الأنفس البشرية تحمل أربعة عشر مليون عين وأربعة عشر مليون أذن!!

ومن الملاحظات الجديرة بكل عناية وتفكير أننا – حتى المتعلمين منا في المعاهد الأجنبية أو في المعاهد الموضوعة حذو المعاهد الأجنبية الذين يحملون الشهادات العلمية العليا التي يحملها زملتهم من الأوروبيين والأمريكيين – قد عجزنا عن اللحاق بالآخرين وعن مساواتهم في الإنتفاع بالشهادات العليا والدراسات العليا: فإن هؤلاء المتعلمين منا عندما يتخرجون من هذه المعاهد يبقون وقصارى أمرهم أن يكونوا مقلدين ناقلين محتذين مراجعين فاقدين كل إبتكار وتجديد وسير بالعلوم التي درسوها إلى الأمام خطوة واحدة... وإن الذين يحملون الشهادات العليا عندنا في العلوم المختلفة يتعدون الإحصاء، ولكن أي إبتكار علمي جاءوا به، وأية نظرية لم يسبقوا إليها سلمها لهم العلم، وأي إكتشاف في ناحية من نواحي المعرفة وفقوا إليه، وأية خطوة خطوها بالإنسانية القائمة على خطوات بنيها؟

أما زملتهم الأوروبيون والأمريكيون الذين خرجوا من المعاهد التي خرجوا منها، والذين يحملون الشهادات التي يحملون فهم الذين يقدمون إلى العلوم وإلى الثروة الإنسانية العامة كل يوم شيئاً جديداً. وهم الذين يفتحون للبشرية كل حين باباً من أبواب المعرفة لم يفتح لأحد من قبلهم. وهم الذين ينفقون أوقاتهم جادين دائبين في فرش الطريق وإزالة كل العقبات الموجودة فيها. وهم الذين على أجنحتهم طار الإنسان حتى سبق الخيال. وهم الذين تنتظر منهم الإنسانية أن يحققوا لها كل أغراضها وأن يقضوا على متاعبها وآلامها! فما أعظم الفرق بين الفريقين! فما هي العوامل الخفية التي قضت بهذا التفاوت المخزي المفزع؟

هذه مناظر بشرية متكررة تؤلم كل نفس، أو يجب أن تؤلم كل نفس، ويقف عندها طويلاً كل مفكر أو يجب أن يقف عندها كذلك. ولكننا – والأسباب خفية أو تكاد تكون خفية – نمر بها ممثلة أمامنا، بل ممثلة في أوطاننا وفي أنفسنا إذ نحن أشخاص الرواية – بل ومؤلفوها – غافلين معرضين لا نمنحها أقل التفات ولا أسرع نظر... فمن منا فكر تفكيراً جاداً صادقاً في هذه المشاهد الباكية متلمساً الأسباب، باحثاً في الأعراض والأمراض محاولاً الوصول إلى مصدر الداء وإلى علة العلل؟ ومن منا قال لنفسه أو لغيره: إن هذه ظاهرة غريبة، وحالة

إجتماعية مريبة، كيف حدثت وكيف يمكن أن تعالج؟

إن المطابع عندنا تخرج لكبار الكتاب ولصغارهم كل عام ما يصعب عده من الأسفار المؤلفة في الآداب ونحوها ولكن أي كتاب أخرجته في هذه القضية بل أي كاتب فكر فيها؟ الظاهر أن الشعوب إذا مرضت أمراضاً إجتماعية خطيرة ضعف شعورها بالحياة، ثم تبع ذلك ضعف شعورها بأمراضها وآلامها، ثم تبع ذلك ضعف تفكيرها فيما أصابها وما يصيبها! والإحساس بالآلام هو في الحقيقة برهان الحياة الفياضة المتدفقة وبرهان القوة والعافية... ومن أجل هذا كان إحساس الإنسان أقوى من إحساس الحيوان، وإحساس الحيوان أقوى من إحساس النبات، ثم الجماد لا إحساس له لفقده الحياة. بل إن الكبار أعظم إحساساً من الصغار لأن حياة هؤلاء أكبر من حياة هؤلاء! وإذا عرفنا هذه الحقيقة لم يكثر تساؤلنا ولا إستغرابنا لخضوع الشعوب والجماعات المنحطة القريبة في معانيها من الحيوانات بصبر هو الرضا عنه لكل هذه الآلام المصبوبة عليها ولاستبعاد الآخرين الأقوياء لها، غير محاولة أن ترفع رؤوسها أو تلقي عن كواهلها شيئاً من هذا العذاب، أو مفكرة تفكيراً صحيحاً جاداً في أنها مظلومة مستبعدة أو أنها موضوعة في غير الوضع الإنساني الصحيح... بينما نجد الشعوب والجماعات الأخرى ذات الحياة والشعور القوي والإحساس الفياض تقوم قيامتها على من أراد أن يصيبها بشيء ما من هذه المصائب التي تنزل كل وقت بالجماعات والشعوب الأولى... فلا يجب أن نعجب إذن كثيراً إذا رأينا أمة من الأمم تسام كل ألوان الخسف غير قائلة: لا، بل غير متألمة بل غير شاعرة بعذابها، ثم رأينا أمة أخرى تعصف بكل ما أمامها إذا ما مسها ماس... ومن هنا كان المتنبي حكيماً جداً حينما قال:

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلام

وليس بجميل منا أن نطالب الجماعات بأن تفكر في حالتها المنكرة الخبيثة وتفكر في محاولة تغييرها ونبذها حتى نستطيع أن نشعرها بآلامها ونشعرها بأن هنالك حياة إنسانية أرقى وأفضل من حياتها التي تحياها. هذه خطوة في أول السلم لا بد منها... فالسبب إذن في أن قومنا لا يفكرون كما يجب في دائهم العضال، ولا يتطلبون أو يتلمسون له العلاج هو أنهم لم يشعروا به شعوراً قوياً

http://www.ithar.com

يبعث على الإنكار أو الثورة لأن أمراضهم اشتدت بهم حتى صاروا لا يكادون يحسونها. ومن عجب أن يكون وجود الشيء وشدته باعثاً على عدم الشعوب به! ومن هنا أيضاً كان المتنبي خبيراً جداً حينما قال مبيناً عن هذا المعنى الدقيق الغامض:

وشكيتي فقد السقام لأنه
قد كان لما كان لي أعضاء

أما أنا – وقد يكون هذا لسوء حظي – فلقد فكرت في هذه المسألة تفكيراً شاقاً مضنياً، وما زلت منذ ست سنوات أو تزيد ورأسي يلتهب بالتفكير فيها إلتهاباً، مقلباً لها على كل الوجوه، محاولاً إنضاجها في معمل الفكر. وما فتئت كل هذه الأعوام أثير مع الأصدقاء ومن يظن بهم الفهم والعلم حولها المعارك الكلامية، والحروب الجدلية، بغية الإحاطة بها من كل أطرافها. والإلمام بأسبابها، حتى لقد ظننت بها شبه مريض، أشفى إذا تحدثت فيها وأمرض إذا سكت عنها... وقد اجتهدت أن أدرس القضية درساً دقيقاً من كل وجوهها وإحتمالاتها، فدرستها في الكتب التي ظننتها مصدر الداء، ودرستها في التاريخ الخاص والعام، ودرستها – وهذا أبلغ الدروس – في نفوس المسلمين: في نفوس الخاصة والعامة المتعلمين والجاهلين، الآخذين معارفهم عن الشرق أو عن الغرب... وقد حرصت كل الحرص لما تشرفت بأداء فريضة الحج في العام الماضي على أن أتصل بالمسلمين الذين جمعتهم هذه الفريضة إتصال بحث ودرس وتنقيب واستقراء، وأصررت على أن أغوص إلى الأعماق وأن أستخرج الدفين الكمين، وأن أصل من تلك النفوس الحائرة إلى ما لم يوصل إليه قبلاً، وأن أكتشف منها ما ظل كل هذه الأحقاب مجهولاً حتى بلغت – حسب ظني – ما أردت. وقد كان كثيرون من الإخوان يعجبون من عنايتي بالصغائر المتصلة بهذه القضية إذا ما رأوني ملحاً في السؤال، ملحفاً في طلب الإكتشاف، وإذا ما رأوني أسأل وأكلم من لا يجوز – بادىء الرأي – أن يسأل وأن يكلم من دهماء الناس وعامتهم.

وقد خيل إليّ أني قد صدرت في هذه الدراسة والبحث عن نتيجة طيبة كاملة بل نتيجة صحيحة لا شك فيها عندي، فجئت أعرضها هنا عرض مؤمن بها وأسجلها تسجيل مؤمن بما سجل.

أن التفاوت الذي ذكرناه بيننا معشر المسلمين وبين الأجناس والأمم الأخرى

لا بد له من أسباب وعلل. وهذا ما لا ريب فيه. فليس من المعقول أن يكون تقدم قوم وتأخر آخرين مشابهين لهم في ظاهر الخلق بل وباطنه مجرد صدفة من الصدف أو مجرد إتفاق لا تعليل له، بل كل شيء قائم على أسباب وعلل.

والمسألة لها إحتمالان أو فرضان من حيث النظر العام: أحدهما أن يقال: إن هذا التفاوت طبيعي في أصل التكوين وجبلة الفريقين. وثانيهما أن يقال إنه تفاوت عارض له أسباب عارضة من الممكن علاجه ومن الممكن الشفاء منه.

أما الفرض الأول فليس من الممكن القول به ولا المصير إليه. وذلك أن تطور العقل البشري في جميع مراحله ومراحل وجوده – وأن التاريخ العام لقيام الأمم وسقوطها ولتوثبها وركودها – وأن تعاقب الأمم والشعوب على عرش الحضارة وتداولها الأخذ بيد المدنية – وأن إختلاط العناصر وتمازجها – بحيث لا يوجد عنصر نقي حقيق لا تشوبه شوائب العناصر الأخرى التي فرضت متأخرة طبيعة أو فرضت متقدمة طبيعة – وأن ما ثبت ثبوتاً لا ينهض لهدمه شيء من إستعداد كل إنسان – حسب ما يصادفه في طريقه وحياته – لأن يكون إنساناً راقياً مهذباً أو إنساناً منحطاً فاسداً – إن ذلك كله – مضافة إليه أشياء أخرى كثيرة – لا يبقى لهذا الإفتراض فرصة لأن يكون مقبولاً قائماً. وهناك شيء آخر في هذه المسألة هو أعظم مما ذكرنا وأظهر. ذلك أن علماء التشريح قد أثبتوا أنه لا فرق يذكر بين جمجمة هذا الإنسان السيد الراقي اليوم وبين جماجم هذه الشعوب التي نشكو اليوم من ضعفها وهوانها لا من ناحية الحجم ولا من ناحية التلافيف والتعقيد والوضع. وأثبتوا أن المخ العام في أممنا الواهنة المغلوبة على أمرها والأمم القوية المبتكرة المتحكمة في مصاير العالم ليس له فروق يوبه لها تقضي بهذا التفاوت العنيف البعيد... فهذا الإفتراض مفروغ إذن من بطلانه، وإذن فالإفتراض الآخر هو الصحيح الواجب المصير إليه، وعليه بنينا بحثنا وكتابنا.

وسنثبت في الفصول الآتية أن المسألة لا تعدو أن تكون تفاوتاً بعيداً في فهم الحياة وفهم سنن الوجود وفهم ما بين الأسباب والمسببات من ارتباط وفهم الإنسان نفسه وفهم صلات الإنسان بالإنسان وصلاته بالوجود وفهم كل ما يقع تحت الحس والوجدان، وإن الحواجز والعوائق التي وقفت في سبيل المسلمين لا تخرج عن أن تكون عوائق معنوية نفسية إعتقادية حملوها أنفسهم

http://www.ittrar.com

فوهنت، ووضعوها في طريقهم فحادوا عن الطريق، وجللوا بها الوجود فلم يفهموه أو يعرفوه ولم يعرفوا حدوده وقوانينه، فتاهوا فيه وذهبوا إلى غير مذهب وسلكوا غير سبيل. فاعترض طريقهم من عرفوا الطريق وأخذهم بقوة سنن الحياة من علموا سننها.

شعبان هبطا هذا الكوكب الأرضي الواسع الأرجاء الكثير الأخطار، أحدهما فكر في نواميس هذا الكوكب الذي هبطه وفي قوانينه ونظمه وفي نواميس أهله وقوانينهم ونظمهم تفكير فاحص فاهتدى إلى كل شيء مما يتصل بذلك فسار تحت ضمان معرفته في قوة لا يكبو ولا يضل، فاستغل واستقل وثبت أقدامه وقواعده على العلم والعرفان... وشعب آخر هبط غريباً في هذا الكوكب جاهلاً نواميسه وقوانينه ونواميس من فيه وما فيه وقوانينه، بل جاهلاً نواميس نفسه ونواميس وجوده، فلم يدر كيف يأخذ ولا كيف يدع ولا كيف يسير ويتجه، ولم يعرف ما يقوده إلى النجاح والفوز ولا ما يؤدي به إلى الفشل والدمار... هذان شعبان فماذا عسى أن تكون النتيجة لإجتماعهما؟ ليس هنالك أدنى ريب في أن الغلبة ستكون للعلم والعرفان، وقد كانت حقاً، وليس هنالك أقل تردد في هزيمة الجاهل إذا ما اصطدم بالعالم وقد حقت بلا صعوبة.

فمهمتنا إذن في هذا الكتاب – بل مهمتنا العامة – أن نعمل على دلالة قومنا بأن الله جلت قدرته وضع لهذا الوجود سنناً لا تبديل ولا تحويل لها، وأن هذه السنن تسير – وفق حكمته وعدله – سيراً دقيقاً موزوناً مقدوراً لا تشويش فيه ولا اضطراب كأنه مسألة رياضية لا يختلف في حلها العلماء ولا تختلف نتيجتها لإختلاف العلماء الحالين لها. فالنتيجة هي هي واحدة سواء أقام بحلها المسلم أم قام بحلها الكافر، وسواء أحلها الشرقي أم حلها الغربي فإن الحقائق المجردة لا تتغير لإختلاف المتناولين لها أو لإختلاف أديانهم ومبادئهم... فإذا ما استطعنا – وذلك ما يجب أن نستطيعه – أن نفهم قومنا ذلك، وإذا ما استطاعوا هم أن يفهموه حقاً – وذلك ما يجب أن يفهموه – كان من اليسير جداً بل ومن المحقق يقيناً أن يسيروا سيراً سريعاً – لا إبطاء ولا تأخير – في سبيلهم التي خلقهم الله وأعدهم وهيأهم وأمرهم للسير فيها – أي إلى الكمال وإلى الحياة القوية. فإن الله قد ذرأ خليقته وذرأ فيها بذور الكمال وذرأها مهيأة لأن تبلغ

أقصى ما في الحياة من قوة ونجاح. وذلك أن الله خلق الأشياء لتكون كاملة لأنه كامل، ولتبلغ أشدها في وقت من الأوقات كما قلنا. فالحيوان – وعلى رأسه الإنسان طبعاً – والنبات والجماد خلقت وفيها عناصر الشوق الطبيعي الآلي والشوق الإختياري الإرادي وكل هذه الأفلاك التي تزين الظلام في حلكة الليل الأصم – وهذه الأرض التي صارت من كمالها وقوتها تنبت الإنسان والحيوان وكل ما فيها مما يجل عن الحصر والتسمية ومما يسعد الإنسان ويهبه الراحة والعيش الهنيء: حدث العلماء أن كل هذه الموجودات خلقت – أول ما خلقت – لا تصلح لشيء مما هي صالحة له اليوم وليست شيئاً له قيمة بالنسبة لما صارت إليه اليوم. ولكنها ظلت – لما وضع الخالق فيها من إستعداد للكمال والتقدم – تدرج إلى غاياتها وتحبو في طريقها جادة لا يعوقها عائق ولا يصدها صاد حتى أصبحت اليوم شموساً ونجوماً لامعة تغمر الوجود بهجة وجمالاً وحياة وضياء...

والإنسان بلا أدنى ريب وهب من الإستعداد للكمال والوثوب والقدرة على إبراز أجمل ضروب الحياة وأقواها ما لم يوهب مخلوق آخر، ولكن الإنسان – لسوء حظه وقد يكون لحسن حظه – جعل سيره نحو الكمال إختيارياً وآلياً معاً لا آلياً فقط – بمعنى أنه من الممكن بالنسبة له السير نحو الكمال والسير أيضاً نحو النقص والدمار. وكلا الأمرين بيده وتحت مشيئته لأن الله شاء له ذلك.

فكان من اللازم الضروري المحافظة حينئذ على خطواته كيلا يزل أو يضل ولكيلا يخرج عن الطريق. ولا جدال في أن شيئاً من الأشياء لا يستطيع أن يصل إلى غايته المرسومة إذا أزيلت عنه العوائق وزحزحت الموانع ثم استعملت المواهب الكامنة فيه وألهبت إستعداداته الطبيعية. ولكن يجب أن يفهم هنا – وهذا له شأن خطير كبير – أن في إستعداد المواهب البشرية وفي طاقتها أن تمضي في سبيلها دون وقوف، فعلينا أن نرفع هذه الموانع ثم لا نحتاج بعد ذلك لأن نلتمس مهمازاً ندفع به الإنسان إلى العمل بطبيعته بل هذا المهماز موجود فيه وفي طبعه... فارفعوا هذه الأوهام والخرافات والقيود الذهنية والأغلال الإعتقادية ثم انظروا كيف يكون الإنسان.

وإن رجائي إلى كل قارىء لهذا الكتاب أن يشاركني الإهتمام بهذه القضية

http://www.ittar.com

الإنسانية الكبرى، وألا يعتقد أن المسألة لا تخرج عن أن تكون أفكاراً تقرأ أو سطوراً تتلى ثم تنسى كما تنسى صغار الحوادث اليومية.

والله المسؤول أن يلهم الصواب والحكمة، وأن يعين على بلوغ الغرض المنشود، وألا يجعل العمل باطلاً ولا الجهد ذاهباً.

عبد الله القصيمي

لقد كفروا بالإنسان - الإيمان به أول

العلم للرحمن جل جلاله
وسواء في غمراته يتقمقم
ما للتراب وللعلوم وإنما
يسعى ليعلم أنه لا يعلم

«الزمخشري»

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

«الرازي المفسر»

فيك يا أغلوطة الفكر
حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما
ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الألى زعموا
أنك المعروف بالنظر
كذبوا، إن الذي ذكروا
خارج عن طاقة البشر

«ابن أبي الحديد المعتزلي»

لعمري لقد طفت المعاهد كلها
وجولت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر
على ذقن أو قارعاً سن نادم

«الأمدي المفلسف»

* * *

http://www.ithar.com

بعثت إحدى الشركات الكبرى بخبرائها الفنيين إلى مكان ما في دولة ما للقيام بالبحث عن النفط، وبعد القيام بالإختبارات اللازمة الأولية نقضوا أيديهم قائلين: إنه لا يوجد نفط في ذلك المكان وإن وُجد فمقادير ضئيلة لا توازي التكاليف والنفقات. فتخلت الشركة عن هذه الثروة المرتجاة. ولكن شركة أخرى أرسلت خبراءها إلى المكان نفسه، للغرض نفسه، في الدولة نفسها، فجاءت النتيجة مقررة وجود ما ينشدون، فأسرعت تلك الشركة إلى شراء تلك الكنوز المخبوءة المجهولة المقادير من أهل تلك البلاد، ووضعت لها ولهم شروطاً أنفقوا عليها. فبدأت أعمالها وأخرجت الكنوز فأفادت هي وأفادت البلاد وازدادت بتلك الثروة العالمية العامة والتفت العالم إلى ذلك المكان وحسبوا له الحساب بعد أن كان في حساب النسيان والإهمال.

هذه حادثة وقعت سقناها هنا لنقول إن الإنسانية في نظرها إلى نفسها وإلى مواهبها الكامنة وكنوزها الذاتية المخبوءة تشبه خبراء الشركتين في إختلاف رأيهم في وجود النفط وفي إختلاف النتائج التي تلزم كلاً من الرأيين والنظرين... ففريق من الإنسانية – بل أمم وشعوب – ينظرون إلى أنفسهم نظر خبراء الشركة الأولى اليائسين من الحصول على النفط في ذلك الموضع، أي ينظرون إلى أنفسهم نظرات اليأس والقنوط من أن يكون فيها مواهب نادرة وإستعدادات طيبة يكمن وراءها النبوغ والعبقرية والكنوز الذاتية. بل يرون أنهم خلقوا ضعفاء مجدبين، وسيبقون كذلك ضعفاء مجدبين ما بقوا، ويرون أنهم خلقوا من الضعف للضعف فلن يعدوا طورهم ولن يقدموا نفطاً ولا غيره. فلا يحاولون القيام بعمل ما لإستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده، فيظلون كما ظل ذلك المكان مئات الألوف من السنين لا يأتون بشيء ولا يلفتون نظر أحد ولا يفيدون الإنسانية شيئاً ولا يضيفون إلى ثرواتها المختلفة قليلاً ولا كثيراً...

أما أفراد آخرون وشعوب أخرى فينظرون إلى أنفسهم نظر خبراء الشركة الأخيرة المؤمنين بوجود النفط وبوجوب إستنباطه فيرون – وهم ينظرون إلى أنفسهم – أنهم حريون بالإستثمار والإستغلال وأن مواهبهم الطبيعية حرية بأن تخرج وتصدر النبوغ والعبقرية، فينشطون إلى العمل ويأخذون بكل الوسائل، فيصبحون ما شاؤوا مجداً وضخامة شأن، ويصيرون أعظم مصدر للحضارة البشرية وأكبر مولد للقوى العلمية.

وهذا يلخص أظهر الفروق بين الشعوب، وهو الذي يحدد إتجاهاتها ويضع لها طرقها، فالشعوب والأفراد الذين لا يؤمنون بأنفسهم ولا بالإنسانية ولا بقواها يقفون في مكانهم لا يتقدمون لأنهم يجهلون مصادر القوة التي يكون بها التقدم وهي الإستعداد الذاتي الذي لا ينضب ولا ينفد والذي لم يقيد بقيود ولم يحد بحدود. فيهملونها كما يهمل الجاهلون العاجزون الغافلون القوى الطبيعية الخصبة بدون إستغلال ولا إستثمار وهي تحت أقدامهم وبين أيديهم وأمام أعينهم، وهذا هو شأن الأمم الهمجية والأفراد المنحطين... لكن الشعوب التي تؤمن إيمان علم وإستيثاق بهذه الموارد البشرية والكفايات الإنسانية والطبائع الفنية ينهضون للإستنباط والإستخراج وللشحذ والصقل فيثرون ذلك الإثراء العظيم. فيصبح الفرق بين هؤلاء وهؤلاء مثل الفرق بين موضعين مخصبين غنيين بالمعادن وبالعناصر اللازمة لضروب المزروعات: أحد الموضعين استغل واستغلت كنوزه وطبيعته، وترك الآخر مجهولاً مهملاً.

إن الشعوب الراقية تمتاز بالإيمان بالثراء الإنساني الطبيعي، ولهذا تحاول الظفر بكل شيء والوصول إلى كل شيء، والتغلب على كل شيء وتجربة كل شيء، فتسير إلى الأمام بالمدنية وتسير بالحياة خطوات واسعة، وتدفع في سبيلها كل عناصر الحضارة وتنقل الإنسان في وجوده وحقيقته من طور إلى طور أعلى وأرقى. وما من شعب – سواء أكان في الشعوب الحديثة أم في الشعوب القديمة – أمكن أن يسود وأن يقتعد مقعداً ملحوظاً رفيعاً إلا وكان متزوداً بهذا الإيمان بقدر معلوم معين. وقد كان الإغريق والرومان والمصريون القدماء والعرب وأوروبا الحديثة وأمريكا طبعاً وغيرهم ممن أوجدوا التاريخ الإنساني وصنعوا الحضارات مدفوعين – على أقدار مختلفة متفاوتة – بفيض من هذا الإيمان. وكل شعب يكفر بالأنسانية – الأنسانية المطلقة، إنسانيته هو وإنسانية غيره– ويكفر بمواهبها وثرواتها الذاتية الطبيعية ويؤمن بأنها مقيدة بقيود وحدود لا تتعداها ولا تتخلص منها، وأنها ليست مطلقة القوى وليس متروكاً لها الطريق – الطريق الذي ليس له نهاية تحده ولا غاية تلزمه الوقوف عندها – نعم كل شعب يكون هذا رأيه وهذا إيمانه بالإنسانية لا محالة من أن تفتر همه ويضعف عمله وأن يقف عاجزاً عن التحليق في سماء اللانهاية، وأن يرضى من زمنه بالتافه الحقير وبالنصيب اليسير... ولو أن هذه الأمم التي ترهب العالم اليوم وتسوقه

http://www.ithar.com

إلى غاياتها الخاصة فقدت هذا الحافز ورأت أن للتقدم وللعلوم وللقوى وللعلو والسير إلى الأمام غايات وحدوداً لا يستطاع قهرها ولا إجتيازها لأثر ذلك أعظم تأثير في توثبها وفي حياتها ووجودها، تأثيراً لا شك في أنه يحد من سلطانها ويضعف من شأنها.

لماذا ينبغ العبقريون الذين يهدون إلينا المخترعات والمكتشفات؟ بماذا يمتازون على الآخرين الذين لم ينبغوا نبوغهم ولم يكونوا مثلهم؟ أيمتازون بالذكاء الخارق؟ ليس هذا كل ما يميزهم، إذ لا شك في أنه يوجد في من لم ينبغوا نبوغهم من هم مثلهم ومن هم يفوقونهم ومن هم قريبون منهم ذكاء. إذن أيمتازون بالهمم الوثابة التي لا تعرف الكلال؟ لا ريب في أن هذا من أعظم وأظهر ما يمتازون به، ولكن لماذا يمتازون بهذه الهمم التي لا تمل العمل والإقدام ولا تكل من الإجهاد والإرهاق؟ يغلب على الظن أن الذي يزودهم بهذه الهمم الخاصة الممتازة والذي يقدم لها الوقود حتى لا تقف والنشاط حتى لا تنصب هو هذا الإيمان بالمقدرة الإنسانية، وإيمانهم بأنهم متمتعون بالقوى التي ستوصلهم إلى غاياتهم وأهدافهم والتي ستتمم لهم مخترعاتهم ومكتشفاتهم... وليس من موضع للشك في أن أحد هؤلاء لو أنه فقد هذه الشعلة – وهو في طريقه للمجد الخالد بل وهو يبني مجد الإنسانية الأرفع – لوقف في مكانه يحيط به اليأس ويغمره الكلال...

وقد اتصف كل أولئك الذين جاؤونا بالمخترعات والمكتشفات الكبرى التي نحيا اليوم هذه الحياة على حسابها بمعين من هذا الإيمان بالطبيعة البشرية لا يعرف النضوب. وقد استطاع مكتشفو أمريكا وغيرها – يمدهم هذا الإيمان الفياض – أن يتخطوا عقبات وحوائل عجز كل أهل عصرهم ومن قبلهم عن تخطيها، وقد خارت كل القوى والعزائم أمام المعوقات التي خارت هي أمام عزائمهم وقواهم المشبوبة بحرارة هذا الإيمان. وقد حاول تخذيلهم وترهيبهم وتعويقهم كل من عرضوا عليهم فكرتهم وإيمانهم ولكن لا شيء استطاع أن يثني ذلك الإيمان الذي جاءنا بأمريكا الجبارة وبغيرها.

وكل أصحاب النظريات العلمية والدعوات الإصلاحية التي سيطرت على مصير التاريخ وغيّرت مسيره كانوا ممدين بهذا الإيمان الذي لا يتضعضع... أن أعظم فرق – أو أعظم ما أوجد الفرق بين الأمم الهمجية والرجال الخاملين وبين الأمم المتمدنة والرجال المتوثبين – هو هذا الإيمان بالإنسانية. فالأمم

والرجال الذين وثبوا امتازوا كما ذكرنا بهذا الإيمان، والأمم والرجال العاجزون القاعدون – وكذلك الأطفال – لم يرزقوا هذا الإيمان، بل رزقوا – وأخبث به رزقاً – الإعتقاد اللازم المسيطر بأن الإنسان خلق عاجزاً محدوداً مهيناً حقيراً لا قدرة له على التحكم في الطبيعة القاهرة الغالبة ولا بد له تستطيع الإمتداد إلى تغيير هذا العالم الذي أوجده الله ولا إلى تغيير صبغته التي صبغه الله بها... فعليه أن يعترف بعجزه وحقارته وضعفه وحدوده وألا يتجاوز قدره أو يتخطى طوره، بل عليه أن يفر أمام الطبيعة وأمام ظواهرها وأن يركع مستسلماً مستخذياً طالباً النجاة والعافية كما تصنع الشعوب الأولية البدائية، وكما يصنع الأطفال الأغرار وكما تصنع العجماوات إزاء كل ظاهرة طبيعية ومنظر كوني ومشكل خطير كبير وأزمة مجتاحة غالبة.

أن رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحني أمام المشكلات الإنسانية الكبرى كمشكلة الفقر ومشكلة المرض ومشكلة البطالة ومشكلة الجدب ومشكلة الجهل ومشكلة الأخلاق ومشكلة الإستقلال والسيادة الوطنية وكل مشكلة... ويرون أنهم ليسوا أهلاً لحل مشكلة من هذه المشاكل، بل وأنهم غير مخاطبين بحلها، بل وأن محاولة حلها وعلاجها من التطاول على الله ومن محاولة الوثوب على مقام الألوهية المقدس. وما عليهم إلا أن ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاؤون ويشتهون؟ وكل ما يجب عليهم في هذه الحالة أن يطيلوا الدعاء والبكاء وأن يصدقوا الضراعة والمسكنة وأن يجملوا الإنتظار... وهكذا تمر الأيام والشهور والسنون، بل والقرون، وهم يؤملون وينتظرون ما لن ينالوا لأن الله لا يفعل لمن لا يفعل لنفسه، ولا ينصر من لا ينصرها كما قال القرآن: "إن تنصروا الله ينصركم" وفي الإنجيل: "أن الله يعين عبداً يعين نفسه."

أما الآخرون المؤمنون بالإنسانية وبأنفسهم فيهبون لعلاج كل مشكلة وينهضون لحمل كل عبء، فيصيبون مرة ويفشلون أخرى إلى أن يصيبوا في النهاية النجاح الحقيقي الأكبر. وهنا تصبح الإنسانية إنسانيتين: إنسانية راقية ناجحة عالمة قوية وأخرى ذليلة فاشلة جاهلة ضعيفة وقد أصبحنا – واأسفاه – من الإنسانية الأخيرة.

أن أولئك يريدون كل شيء من السماء ومن الآلهة المتعددة الأخرى. أما هؤلاء فيعلمون أن عليهم أن يرجعوا إلى أنفسهم وأن يعولوا عليها وأن يطلبوا منها كل

http://www.ithar.com

شيء وأن في إستطاعتها أن تهبهم ما فقدوا وما احتاجوا إليه... فيبدعون في الأعمال ويسيرون في الطريق، أما أولئك فقصاراهم النحيب والدعاء المذل، ثم الإنتظار الطويل الممل، ثم التسلي والإشتغال بذلك كله عن العمل وعن إقتحام الصعاب.

وإن أبشع صورة لهذه الحالة النكراء هؤلاء الخطباء الذين يقرعون مسامعنا كل يوم جمعة بهذه الضراعات الكاذبة والإبتهالات الوقحة الذليلة – داعين على الآخرين – سائلين الله أن يسقط عليهم السماء أو يخسف بهم الأرض أو يجعلها عليهم ناراً، وأن يدمرهم وأن يجعلهم هم وأموالهم ونساءهم وذراريهم غنيمة باردة لهم ولأمثالهم من المسلمين العاجزين عن الحياة. ولكن الله لن يصنع ذلك أبداً ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، لا حتى تمتد ألسنتهم بالسوء والسباب وتفيض قلوبهم بالحقد على المتفوقين العاملين والحسد لهم.

ومعلوم أن الدعاء أضعف وسيلة يلقي بها عدو عدوه، بل إنه ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تعويض وتصريف خبيثة ضارة. وبيان ذلك أن إنساناً ما إذا غضب أو حنق على إنسان آخر – أو أمة على أمة أخرى – لسبب من الأسباب كالظلم والعدوان أو المنافسة والحقد والحسد – صار هذا الحنق والغضب قوة دافعة، من الممكن، أو من المؤكد، أن تدفع ذلك الحانق الغاضب إلى العمل أو إلى الإنتقام والبطش. ولا محالة من أن تندفع هذه القوة في سبيل ما من سبل الإندفاع. والسبيل الطبيعي النافع لها أن تندفع في سبيل الإنتقام والبطش أو العمل والإنتاج – أي ينتقم المظلوم من ظالمه أو يعمل وينتج ليلحق أو يسبق منافسه الذي أضرم في قلبه نار الغيظ. ولكن إذا وجدت هذه القوة لها متنفساً وطريقاً آخر غير هذا الطريق الطبيعي انطلقت فيه فألفت في إنطلاقها هذا تعويضاً ومصرفاً عن الوجه الآخر. وهذا معروف في كل القوى المندفعة بالضغط أو الدفع. وإن أعظم قوة تسير أعظم الآلات وأكبرها لتعجز عن القيام بوظيفتها هذه إذا وجدت لها طريقاً غير هذا الطريق أو متنفساً.

وقد كان المفروض في هذه الشعوب والأفراد الحانقة الغاضبة المهتاجة على من ظلموها أو فاقوها وسبقوها أن تقوم بعمل ما مثمر لتحطيم هذه الحواجز والقيود والأغلال والفروق الظاهرة المخزية – تدفعها قوة الحنق أو قوة الحسد

والمنافسة. ولكن هؤلاء سلكوا طريقاً آخر لتبديد هذه القوى الذاتية النفيسة... أنهم اشتغلوا بالسباب والدعاء والإتهام وسائر ألوان الكلام، فوجدوا في ذلك أعظم راحة تخلصهم من تلك القوى المتولدة من إحتراق الإنفعالات والعواطف المختلفة.

إنها فروض ثلاثة: إما أن تدفع هذه العواطف إلى العمل وإما إلى الكلام، وإما أن تبقى هما مخامراً وغيظاً دفيناً، تحتبس نيرانه المتوهجة في النفس...

أما العمل فهو ما يجب أن يكون أثراً لهذه العواطف وبهذا تصبح نافعة مفيدة حافزة على النجاح والإبداع. وأما الكلام – أي السباب والدعاء والإتهام – فهو المصرف الخبيث لها والملهاة المفسدة المعوقة للبشر عن الإنتاج والعمل النافع. وأما الهموم ودفن الأحقاد في حنايا النفس فهذا قد يكون شر الفروض الثلاثة من الناحية النفسية غير أنه لا ريب في أن هذه العواطف والإنفعالات هي من القوى الدافعة الضاغطة كما ذكرنا، فلا بد أن تنتهي بصاحبها إلى أحد الأمرين الأولين: العمل أو السباب والتشفي الساذج، فلنحذر الأخير لنصير إلى الأول.

لقد رأينا – وإننا لا نزال نرى، كما يرى غيرنا أيضاً – الحشود الكثيرة التي وجهت هذا التوجيه السخيف القاتل، تظل تقتل أوقاتها وتجود بساعات نفيسة من ليلها ونهارها في الدعاء على المتفوقين الناجحين، وعلى الظالمين الذين يجب أن يقاوموا وفي السب والإتهام ونشر الإشاعات عنهم، وفي الآمال الباطلة الراجية من الله أو من الزمان أن يتبرع بتدميرهم وبالقضاء عليهم – لا لشيء إلا لأنهم هكذا يشتهون ويريدون... وإن هؤلاء البائسين ليشعرون بأعظم العزاء في هذا الأسلوب البدائي المنكر! !وهم لا يدرون أنهم بذلك يحطمون أمضى سلاح أودعه الله للإنتقام أو للمنافسة والمباراة والتذاود حول مشرع الحياة.

وكم من الفروق بين أن تقوم بعمل ما – مهما كان هذا العمل صغيراً – إزاء منافس قوي أو ظالم جبار وبين أن تذهب تصطفي أبرع ألفاظ الدعاء وأجمعها، وأقبح الإشاعات والإتهامات وأشنعها، لتنتزعها من أعماق عاطفة محترقة مضطرمة لتصلي بها منافسك أو ظالمك فلا تصليه ولكن تصلي نفسك وتدمر حياتك، فلا تزداد إلا إحتراقاً وهبوطاً بينما يزداد هو مجداً وإرتفاعاً.

ولعله مما يبالغ ويضاعف في سرور أعدائنا المحتلين أن تنشق حناجرنا كل أسبوع في مساجدنا بالدعاء عليهم وبلعنهم لأنهم يعلمون عواقب ذلك كله. وأن

http://www.ittrar.com

المثل الغربي القائل": لا تلعنوا الظلام ولكن أوقدوا الشمعة "لخير ما يجب أن تنسج على نوله التربية والتوجيه العاطفي والعقلي.

وقد لونت الثقافة التي ما زلنا منذ ألف سنة تقريباً نطعم على مائدتها بهذه الألوان الدكناء... فمن رأي هذه الثقافة – وهو الرأي الذي لا رأي لها سواه – أن الإنسان ما خلق ليكون يوماً ما عظيماً بل إنه خلق ضعيفاً في عقله وجسمه، وليس له مفر من هذا الضعف. وكل محاولة تبذل للفرار من هذه الحقيقة هي محاولة خاسرة. وعند هذه الثقافة أن الإنسان محدود وأنه ليس من المستطاع أن يخرج من حدوده إلا إذا كان من المستطاع أن يخرج من عبوديته ومخلوقيته. فإن هذا التحديد الذي زعموه وخالوه هو أحد معاني العبودية والمخلوقية وأحد ما يلزمهما. وإطلاق القوى المختلفة من الحدود والقيود لا يكون – في رأي هذه الثقافة – إلا للخالق وحده. والأشعار التي أوردناها في مطلع هذا البحث تبين عن حكم هذه الثقافة في هذه القضية أحسن إبانة: ففي قول الزمخشري أن العلم لله وحده أما من سواه من المخلوقين فهم في غمراتهم أو غفلاتهم يتقمقمون، وليس لهم أن يطلبوا علماً ولو حاولوا هذا الطلب لما بلغوا ما طلبوا، وذلك أنهم تراب: خلقوا من التراب ومصيرهم التراب، وما للتراب وللعلوم. وهم إنما خلقوا ليعلموا وليعلم سواهم أنهم غير قادرين على أن يعلموا شيئاً وأن يكونوا علماء وأن يفلتوا من أصفاد الجهل:

ما للتراب وللعلوم وإنما
يسعى ليعلم أنه لا يعلم

فالإنسان عند الشيخ الزمخشري ما خلق إلا من أجل التدليل بجهله على أنه جاهل جهلاً طبيعياً لا يمكنه التفلت منه. وهذا بمثابة الحكم بالإعدام على المواهب الإنسانية بل على الإنسانية في كل معانيها.

وأما الشيخ الرازي فيرى أن أقصى خطوات العقل البشري أن يعجز عجزاً مطلقاً وأن يقع في عقال يمنعه التفكير والعمل والتقدم والتأخر. ومعنى هذا أن العقول كلما فكرت وعملت وحاولت الإقدام في مجالها ازدادت حيرة وضلالاً وضعفاً وجهلاً وعجزاً عن المعرفة! فمن الخير لها إذن أن تحجم وألا تقدم، ومن الخير لها أن تبقى في مكانها لا تبرحه لئلا تضل ولئلا تذهب بداداً ثم لا ترجع أبداً.

لكن ابن أبي الحديد يحكي أنه قد أضاع عمره كله في تلمس الحقيقة – والحقيقة أغلوطة من أغاليط الفكر – وأنه حار في أمره. ويحكي أن العقول الأخرى أيضاً قد سافرت وجهدت قبل أن يسافر ويجهد عقله هو طلباً لهذه الحقيقة، ولكنها لم تظفر بها ولم تربحها، وإنما ربحت مشقة السفر العقلي! ثم ينحي باللائمة على أولئك الذين زعموا أن الحقيقة يمكن أن تعرف بالبحث والنظر والفكر، ويدعو عليهم – مترفقاً بهم راحماً لهم من أجل جهلهم ومن أجل ما أصابهم من العناء والنصب. ثم يرسل حكمه الصارم قاضياً عليهم بأنهم في زعمهم هذا قد كذبوا، وزاعماً أن عرفان الحقيقة خارج عن الطاقة البشرية. فليس في إمكان البشر مجتمعين أن يدركوها وأن يعلموها! فليقنعوا إذن بالجهل الذي هم أهله، وليدعوا تطلب المحال وما لا ينال.

على أن الشيخ الآمدي – بالبيتين اللذين نقلناهما عنه – قد رمى البشرية العامة بما أصمى فقد زعم أنه قد طاف بالمعاهد العلمية كلها طواف مختبر مستخبر، وأنه قد جول بطرفه بين تلك المعاهد جميعاً تجويل فاحص مستقص، راجياً أن يرى أو أن يعلم من نفعه بحثه ودراسته أو من هداه عقله وكتبه فاطمأن إلى عرفان، أو برد كبده الحري ببرد الإيقان... ولكنه – واأسفاه – لم يجد أحداً من هؤلاء الذين طلبهم وإنما وجد من وضع كفه على ذقنه من الذهول وشدة الحيرة ومن ذهب يقرع سنة من الندم والأسف على ما أنفقه من الأعمال العقلية والفكرية التي كان أمله فيها أن تهبط به على ساحل النجاة فهبطت به في ظلمات من الشك والريب والغواية.

وقد صنع أحد هؤلاء أنشودة قديمة يتناقلونها في كتبهم ويترنمون بها في مجالسهم، ويزينون بها أحاديثهم... قالوها في مذمة أولئك الرجال الذين حاولوا في عصور سحيقة أن يضعوا اللبنات الأولى في بنيان هذه الحضارة، وأن ينحتوا الأحجار التي قامت عليها المدنيات سافاً بعد ساف... وقد ظنوا أنهم بوضع هذه الأنشودة الظالمة يرضون الله إذ يخصونه وحده بالعلم، ويرضون الأديان وأصحابها إذ يحسبون أنها إنما جاءت لتجرد الإنسان من كل القوى العقلية والمادية لتقدمها للخالق من غير أن يشاركه فيها مشارك! وقد جاء في هذه الأغنية قولهم متهكمين ساخرين:

http://www.ithar.com

من أنت يا أرسطو ومن
أفلاط قبلك قد تجرد
ما أنتمو إلا الفراش
رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه
ولو اهتدى رشداً لأبعد

يعنون بهذا أن هؤلاء الرجال الباحثين وغيرهم من الفلاسفة حكمهم حينما أرادوا الدنو من المعرفة ومن العلم الذي لم يهتك حجابه حكم الفراش الذي يرى النور المتوقد فيثب عليه ويدنو منه فيحترق فيموت! وقد كان حكم العقل الراشد يقضي بأن يبعد عن السراج وعن نوره لينجو، ولكن الفراش لا يهتدي لأنه لا عقل له. وكذلك هؤلاء الذين يطلبون المعرفة ويحرقون أنفسهم بطلبها من غير أن يدركوها ويجهلون كما يجهل الفراش الهاجم على النار والنور. فالمعرفة إذن لا يمكن الوصول إليها، ومن حاول هذا الوصول هلك في طريقه.

هذه صور قليلة تنبىء عن مقدار سيطرة هذه الروح الخبيثة الشريرة على ثقافة هؤلاء الذين تعلق العالم الإسلامي منذ مئات السنين بركابهم فراحوا يجرونه وهو لا يدري أين هو ذاهب فأصابه من الجروح والقروح والأحوال المذهلة ما أعجزه حتى اليوم عن الإفاقة وعن الشعور بما هو فيه من الآلام. إن من كلامهم الذي سار مسار الأمثال: "العجز عن الإدراك إدراك" يعنون أن العجز عن العلم علم.

انظر إلى هؤلاء الواقعين صرعى في معركة الحياة الرهيبة، العاجزين عن النهوض وعن الحياة الصحيحة، ثم سلهم فرداً فرداً: لماذا سقطوا ولماذا عجزوا تعلم أنهم قد سقطوا وأنهم عجزوا لأسباب، وأن أحد هذه الأسباب هو شكهم في أنفسهم وكفرهم بكفاياتهم الذاتية بل كفرهم بالكفايات الإنسانية.

نعم، كل إنسان يحب النجاح غريزة، ويعشق الكمال، وكل إنسان فيه الإستعداد الطبيعي لهذا النجاح ولهذا الكمال، بل كل شيء في هذا الوجود – سواء في ذلك الجماد والنبات والحيوان – سائر في طريقه الطبيعي سيراً آلياً أو إختيارياً إلى النجاح وإلى الكمال النسبي اللائق به، وكل شيء أعد إعداداً طبيعياً ليحيا حياة صحيحة بالنسبة لوجوده وحقيقته. وما من شيء ينحرف عن

هذه الحياة الصحيحة ويعجز عن الإستمتاع بها إلا لآفة طارئة عاقته عن أن يصل إلى ما هيء له. فإذا عجز نوع من أنواع النباتات عن بلوغه الغاية المقدرة له من النمو والقوة والجمال فهل هناك من يرتاب في أن آفة من الآفات النباتية عدت عليه وأن هذه الآفة ليست طبيعية وإنما هي عارضة. والإنسان بلا خلاف أولى هذه الموجودات بالكمال وبالحياة القوية لأنه أرقاها؛ فلماذا إذن لا يبلغ هذا الذي يحب ويعشق والذي جعل مستعداً لبلوغه؟ لماذا لا يبلغ النجاح ولا الكمال مع أنه يحبهما ويعشقهما ومع أنه خلق وفيه الإستعداد والكفاية الفطرية الذاتية لبلوغهما؟ لماذا لا يبلغ الصانع والتاجر والزارع والعالم والمتعلم وكل صاحب فكرة أو عمل الغاية التي يحب والنهاية التي يتصورها؟ ولماذا يرضى من كل ذلك بالحظ التافه وبالحصة الحقيرة؟؟ لهذا أسباب بلا ريب، من هذه الأسباب الجهل والعجز وضعف الهمة. ولكن لماذا يبقى جاهلاً بما يجب عليه من أجل النجاح فيما هو فيه وعاجزاً عن الأخذ بما يلزم من أجل النجاح؟ لا تردد في أن من أسباب ذلك جهله بنفسه وكفره بما فيه من ذاتية عريقة، في استطاعتها – إذا أحسن إستخدامها والإنتفاع بها – أن تحطم أصفاد الجهل وأغلال العجز والضعف. فالأمر إذن يرجع في كثير منه إلى الكفر بالإنسانية المشتركة... ثم ضعف الهمة!؟ لماذا يرضى الإنسان بالهمم الضعيفة الواهنة ولماذا لا يثب حتى يصير من ذوي الهمم الغلابة القهارة؟ لهذا أيضاً كما لا يخفى أسباب. لأن رضا الإنسان بالدون ليس طبيعياً فيه ولا غريزياً... بعض هذه الأسباب شكه أيضاً في مقدرته على أن يكون من أرباب الهمم العاتية العالية وإعتقاده أنه عاجز عن صعود هذه القمة – أي جهله بما يكمن فيه من القوى وضروب الإستعداد وجهله بحقيقة الإنسان من حيث هو إنسان. وإلا فإن النجاح الحقيقي يغري ببذل الثمن مهما كان غالياً، ومهما كان كثيراً. فالخوف في الغالب من بذل الثمن لن يكون مانعاً عائقاً ولكن الذي يمنع ويعوق ويقعد بالهمم والقوى عن النهوض هو الشك في النجاح، وهو العجز عن الإيمان بالقدرة الشخصية التي تكفل الفوز وتبلغ الغرض البعيد.

وأمور الناس كلهم قائمة على الإعطاء رجاء الأخذ وعلى التضحية من أجل إنتظار الجزاء، وكلهم مستعدون فطرة وطبيعة أن يعطوا وأن يبذلوا، وإن آلم الإعطاء والبذل إذا آمنوا إيماناً لا شك فيه بأنهم سيأخذون أكثر وأفضل مما

http://www.ithar.com

أعطوا وبذلوا، سواء أكان هذا الإعطاء وهذا البذل ذهنياً أم جسدياً أم مالياً... ولولا هذا الإستعداد الإنساني الشامل لوقفت كل الأعمال، ولما استطاع الإنسان أن يتقدم ولا أن يتأخر ولا أن يفعل شيئاً. هذه طبيعة إنسانية لا يمكن ردها ولا تبديلها، وهي في خير الإنسانية بلا شك، بل عليها قامت كل الحضارات والمدنيات والعمران، بل وكل الأعمال الصالحة البارة التي يفعلها الأبرار الصالحون رجاء الجزاء الأخروي. ولو فقد الإنسان هذه الغريزة لما استطاع أن يكون شيئاً مذكوراً. وعلى هذا فلا شك في أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم مؤمنون بالأجزية والمكافآت في دار البقاء وهم يصرون على المخالفات وعلى كسب السيئات وترك الحسنات غير مؤمنين حقاً لا بالثواب ولا بالعقاب وإلا لعملوا لما يؤمنون به. والمسألة مسألة شك أحياناً يكون ظاهراً، وأحياناً أخرى يكون مقنعاً. ولو ارتفع هذا الشك لكانت النتيجة غير ذلك. فليس الفرق بين الصالح الورع المنقطع إلى عمل الصالحات وبين الفاجر المكب على الشهوات المحرمة هو أن الأول أحرص على الخير لنفسه وعلى البذل والإعطاء من أجل الأخذ والجزاء من الثاني، كلا فإنهما يستويان في هذه الناحية. بل قد يكون الفاجر أحرص على ذلك من الصالح إن كان في هذا تفاوت. ولكن الفرق بينهما أن الصالح آمن بالأجزية إيماناً تاماً أما الفاجر فإنه لم يؤمن بها هذا الإيمان، وإنما شك وظن ظناً أو كفر كفراناً أو نسي نسياناً، فراح يأخذ ما استطاع أخذه ولم يجد إيماناً بالعاقبة يحمله على أن يعطي عاجلاً ليأخذ آجلاً. والحكمة المتبعة عنده قول القائل:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به
في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

فكل هؤلاء الذين نراهم عاجزين عن النجاح راضين من الأعمال ومن الحياة ومن أنفسهم بأحقر ما يمكن لا يجب أن نفهم أنهم قد رضوا بذلك وهم يرون أن في إستطاعتهم الحصول على أحسن وأفضل منه أو أجمل. وإنما يجب أن نفهم أن من أعظم ما حملهم على هذا الرضا أو هذه القناعة هو أنهم لم يعلموا أن في قدرتهم أن يصنعوا شيئاً وأن يتخلصوا مما هم فيه وأن يظفروا بما يحبون ويشتهون.

أقنع إنساناً ما – تاجراً أو صانعاً أو زعيماً أو من شئت من ضروب الناس

– بأن فيه العناصر اللازمة لأن يكون أكبر وأعظم مما هو ومما كان، ومكنه من أن يؤمن بهذا إيماناً بمعناه الصحيح ثم انظر هل من المنتظر أن يتخلى عن هذه الفرصة وأن يقنع بحالته الحاصلة خوف البذل وخوف الإقدام إلا إذا كان من المنتظر أن يعلم إنسان بأن تحت قدميه كنزاً عظيماً لا يحول بينه وبين الظفر به إلا العمل على إخراجه ثم يتركه لأنه لا يريد أن ينصب ولا يريد أن يقوم بعمل من الأعمال ولو في سبيل إخراج الكنوز الموضوعة تحت قدميه. وإذا عقلنا سر هذا في الطبيعة البشرية بل في طبيعة الحياة كلها تجلى لنا عمق قول أبي الطيب وغزارته:

ولم أر في عيوب الناس شيئاً
كنقص القادرين على التمام

من الصدق والحق أن يقال لا عيب أشنع من أن يقدر إنسان على الكمال والنجاح ويعلم من نفسه تلك القدرة ثم يأبى الكمال ويزّور عن النجاح؟ إن مثل هذا الإنسان إن وجد لا بد أن يكون شاذاً في قوانين الطبيعة شذوذاً هو المرض عينه.

من الواجب المفيد أن نعرف من أين جاء الإنسان هذا الكفر بذاته وإنسانيته أو لماذا كفر بهما هذا الكفر! يلوح أنه كفر هذا الكفر لأنه أراد أن يؤمن بالله الإيمان الذي تصوره. فقد تصور أن أساس الإيمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق أو بين الله وعباده. فالله يجب أن يعتقد بأنه كامل في كل شيء قوي في كل شيء، والعبد يجب أن يعتقد بأنه ناقص في كل شيء ضعيف في كل شيء. ثم تصور أنه كلما بالغ في تنقيص الإنسان والمخلوق وفي تضعيفه فقد بالغ في تعظيم الله وفي الإيمان وبكمالاته وأن كل ما يخلعه على الإنسان من النعوت الفاضلة والأوصاف المحترمة إنما ينتقصه من حق الله ومن نعوته وأوصافه. فإذا ذم علم المخلوق وقوته ووصفه بالجهل والضعف فقد كان ذلك بمثابة الثناء على الله وعلى واسع علمه وعلى إختصاصه بالعلم والقوة، وتصور أن ذلك يرضي الله كل الرضا وأن خلافه يغضبه كل الإغضاب، لأن الله لم يشأ لعباده أن يساووه ولا أن ينازعون في الكمال والعظمة أو السلطان العلمي أو المادي، فحدد قواهم العقلية وغيرها بحدود صارمة معلومة لا يستطيعون تعديها: فعلومهم ومعارفهم وعقولهم محدودة بحدود ضيقة، ليس لها أن تتجول في باحات المعرفة

http://www.ithar.com

كيف شاءت أولاً أن تنطلق من أغلال الجهل والنقص كلما أرادت، وإلا فما الفرق بينهم وبين الله! وما الفرق بين صفة المخلوق وصفة الخالق؟ وهل يرضى السيد العظيم أن يكون لعبيده الأذلاء من الصفات مثل ما له، أو هل يرضى أن ينازعوه كماله؟ ثم البرهان العقلي يقضي بألا يكون المخلوق الحادث مثل القديم الأزلي في أمر من الأمور وإلا فلا فرق بين القدم والحدوث ولكن المسألة كلها قائمة على التفريق بين الحدوث والقدم أو بين القديم والحادث. ولولا هذا لما كان هناك عابد ومعبود، ولكن الديانات كلها مبنية على العبودية. ومن أجل هذا كله ومن أجل غيره أيضاً فإنهم ما فتئوا يضعون الأهاجي المريرة الواصفة للإنسان بجميع أوصاف الإنحطاط الذهني وغير الذهني. وقد رأوا – وما زالوا يرون – أنهم بهذه الأهاجي يتقربون إلى الله وينالون رضاه ويتملقون ألوهيته، لأنهم يذمون من عداه. فالخطيب والواعظ والشاعر والمفسر والمحدث والمتصوف والمتفلسف – كل هؤلاء وغيرهم يرون أنهم لا يبلغون الثناء على الله وأنهم لا يحسنون الإحسان المطلوب منهم المفروض عليهم إلا إذا بدأوا كلامهم وختموه بهجاء الكفايات الإنسانية، وإلا إذا حكموا على الإنسان بالموت وقالوا كما قال أحد شيوخهم – وهو الشيخ الزمخشري كما سبق: – إن العلم للرحمن فقط وأما الإنسان فما خلق إلا من أجل أن يتقمقم في جهالاته وغفلاته ومن أجل أن يثبت له أنه لن يكون عالماً وأنه تراب وأن التراب لا يمكن أن يعلم شيئاً.

وقد أكثروا جداً من هذه الفلسفة المجنونة المخذولة ومن هذا التدين المدخول حتى أصبح الخلاف فيهما خلافاً لديهم ولدى القطعان التابعة لهم في إحدى القضايا المفروغ منها. وصار من العقائد الثابتة للخاصة والعامة أن الإنسان لا يعدو أن يكون أحد تلك الأشياء التافهة الحقيرة التي لا يرتجي منها خير ولا علم ولا قوة. وصاروا كلما سمعوا ذكر المشكلات والأزمات الإجتماعية والعلمية والإقتصادية والنفسية والخلقية والأدبية، وسمعوا إمكان تغلب الإنسان عليها وحله لها ونهوضه بها، وسمعوا ما ينتظر من وثوب الإنسان بالعلوم وكل نواحي الحياة وقهره للأمراض وللجهل وفتوحاته العلمية المرتقبة التي قد تفضي إلى القضاء التام على صنوف الشقاء الإنساني: صاروا إذا سمعوا هذا أو سمعوا شيئاً منه اشمأزوا منه ومن قائليه واتهموهم بفساد الإعتقاد وبالزندقة والإلحاد. إذ يرون أن مثل هذه المزاعم تدل على أنه – أي

الإنسان – ترك غير محدود القوى الذهنية وأن له أن يشارك الله في عمله وأن يخرج من نطاق الإنسانية الضعيفة الواهنة إلى رحاب الألوهية التي تتصرف كيف تشاء وتعلم ما تريد، وهذا عندهم نهاية الكفر والضلال. ولكنهم لا يشمئزون الإشمئزاز البالغ، ولا يثورون الثورة الجامحة إلا إذا سمعوا أن علم الإنسان قد يتوصل إلى ما يظنونه غيباً. فلو أقيمت لهم كل الدلائل على أن الإنسان قد يستطيع بآلاته الدقيقة المحكمة وبأشعته المختلفة القوية التي هتكت كل حجاب أن يعلم ما في بطن الأنثى – أذكر هو أن أنثى – كما يعلم الأمراض الباطنة ويراها رأي العين ويعلمها علم اليقين، وكما يرى المخلوقات الميكروسكوبية التي كانت من وراء المادة، ومن الأشياء الغيبية قبل صنع الميكروسكوبات وغيرها من الآلات – أو أنه قد يستطيع التوصل إلى جعل إخصاب المرأة كما يريد إن شاءه ذكراً وإن شاءه أنثى – كما توصل إلى هذا في كثير من النباتات والحيوانات، بل كما قيل إنهم قد صنعوه في الإنسان نفسه: – نعم لو أقيمت لهم كل البراهين على أن الإنسان قد يستطيع هذا أو أنه قد استطاعه لما آمنوا ولو سمعوا من يدعيه ويقوله لكان أقل ما يرمونه به التكفير.

وهكذا قد أصروا على إتهام الإنسان وعلى إتهام مقدرته، وأصروا على أنه ما خلق ليعلم ولا ليتحكم بعلمه في الكون ولا ليخضع الطبيعة ويسوقها إلى أغراضه ومصالحه، بينما كان الآخرون جادين في إستغلال المقدرة الإنسانية مصرين على أنها قد تعطي الشيء الكثير إذا أحسن إستخدامها وإستغلالها، وأنها قد تسمو حتى لا يعوقها عائق وتقدم حتى لا تجد مكاناً للإحجام. فكانت النتيجة بالنسبة للفريقين مختلفة كل الإختلاف. وليس هنالك مجال للشك في أن الفرق سيكون عظيماً جداً بين أمتين أو إنسانين أحدهما يرى أنه صالح لأن يعلم ويعمل ويقهر كل صعب، والآخر يرى أنه عاجز مهين لا يصلح إلا ليبكي نفسه وينشد الأناشيد في ضعفه وجهله، وإلا ليرتقب من الكون الذي يطبق عليه أن يرزأه بما يشاء ويصيبه بما يحب بدون أن يستطيع الدفع عن نفسه لأنه عاجز مخذول متخاذل أمام الطبيعة، راكع أمام قوى الكون.

ومن غريب الإستدلال الباطل في حقيقته، العجيب في مرماه أنى قرأت مرة في كتاب مطبوع لأحد المسيحيين ما خلاصته: إن القول بألوهية المسيح وإن كان باطلاً في نفسه إلا أنه مفيد في نتيجته، وذلك أننا إذا أفهمنا الدائنين بالنصرانية

http://www.ithar.com

ففهموا أن بشراً في مظهره ومنظره ومولده وحياته وكل صفاته استطاع أن يترقى حتى صار إلهاً يفعل فعل الآلهة ويعلم علمهم ويخضع الأمم والشعوب إلى أن تدين له بالألوهية والربوبية وتعبده، فقد فتحنا مجالاً للتسامي والرقي لا حد له، يأخذ بالهمم والآمال فتتسامى هذا التسامي وتطمح بأبصارها إلى هذا المرتقي العظيم... وفي هذا من الحفز للهمة والإغراء بالوثوب ما يعجز عن وصفه الواصفون، ولهذا فإن الفرق في عظمة الآمال وإتساع المطامع عظيم بين الأمم المسيحية وغيرها... هذا خلاصة قول هذا المدافع عن تأليه المسيح... وليس بخاف ما في هذا القول من محاولة للتسامي بالمواهب الإنسانية والحقيقة الإنسانية، وكم من الفرق بين هذه الروح التي أملت هذا الكلام وبين تلك الروح التي أملت قولهم (ما للتراب وللعلوم إلخ)... لقد عظم الفرق في التوجيه والإتجاه فعظم الفرق في النتيجة والغاية. ولا يفهمن أحد من سياقنا لهذا الإحتجاج أننا نرضاه. كلا وإنما سقناه لما فيه من الدلالة على رغبتهم الشديدة في أن يتساموا بآمالهم وأعمالهم.

ومن الحسن أن يفهم القارىء أن هذه الفلسفة التي ذكروها في ضعف الإنسان فلسفة باطلة، يردها النظر كما تردها النصوص الدينية الصحيحة... إذ لا ريب من ناحية النظر أن الصانع يعظم كلما عظمت صنعته وعظمت آثار صفاته ويمدح بذلك، وأنه ينقص إذا نقص الشيء الذي يفعله ويوجده ويذم بذلك. فعلى حسب الشيء تكون الآثار والأفعال، فالذي يفعل العظيم المحكم البديع الصنعة يكون عظيماً، والذي يصنع الحقير التافه ولا يستطيع أن يصنع غيره يكون تافهاً حقيراً. وهذه قضية منطقية لا خلاف فيها. فإذا أثنينا على الإنسان الذي هو مخلوق لله فقد أثنينا على خالقه، وإذا ذممناه فقد كدنا نذم خالقه – أو فقد ذممناه من حيث لا ندري ولا نريد – ولهذا فإن الأديان كلها قد دأبت على لفت الأنظار والتوجيه إلى المخلوقات الكبيرة العظيمة كالشمس والقمر والنجوم والسموات والأرض لما في ذلك من التعظيم لله ومن الإبانة عن سلطانه وعظمته ومن التدليل على أنه الإله الكبير المتعالي.

ولهذا أيضاً فقد جعل المقربين لديه كالملائكة والأنبياء والرسل هم أقرب الموجودات إلى الكمال وأعظمها علماً وذكاء وقوة. فالنظر إذن يرشدنا إلى أنه يجب – إذا أردنا تعظيم الله – أن نعظم مخلوقاته وأن نعتقد بأنها قد خلقت

مستعدة للكمال وأنها إذا لم تكمل فهي التي أبت لنفسها هذا الكمال الذي أراده لها خالقها، إذ الكامل يخلق الكامل ويريده، والناقص يخلق الناقص ويريده ويعجز عن سواه.

وأما من ناحية النصوص فلنذكر في هذا المقام ما حكاه الكتاب الكريم عن الإنسان الأول إذ قال": وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة – إلى قوله – وعلم آدم الأسماء كلها– إلى قوله:– قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم "...الآية. فأخبر تعالى عن الإنسان أنه مستخلفه في الأرض. ومعلوم أن الخليفة في العادة ينوب عمن استخلفه. ولا يستخلف الحكيم العاقل إلا خليفة جديراً بالقيام بالخلافة قياماً صحيحاً لا يمنعه القيام بها – كما يجب – جهل ولا عجز ولا هوى. ولو كان الله يعلم أن الإنسان مطبوع طبع طبيعة على الجهل الذي لا يمكن الخلاص منه لما اختاره خليفة له في أرضه. ثم من المعلوم أيضاً أن الخليفة يكرم ويشرف بقدر شرف مستخلفه وكرمه. فمن كان الله مستخلفه كان ذلك نهاية الشرف ونهاية الكرم. ثم من العادة أيضاً أنه لا يبشر ولا يخبر بوجود الشيء قبل وجوده إلا إذا كان ذلك الشيء عظيماً محبوباً مرضياً، ولا يمكن أن يخبر ولا أن يبشر بوجود الأشياء التافهة الحقيرة. والإنسان إذا كان عظيماً وكانت له قيمة فإنما ذلك بعقله وعلمه لا بشكله وصورته بلا خلاف. والله قد أنبأ الملائكة بوجود هذا الموجود العجيب قبل أن يوجد وبشرهم به. والعادة أيضاً قاضية بألا يخبر العظيم بالشيء إلا إذا كان الشيء شريفاً عظيماً، فلو كان الإنسان تافهاً حقيراً صغيراً في قيمته الأدبية لما أخبر الله الملائكة به ولما جرى فيه حديث. وقد قالت الملائكة متعجبة مستفهمة بعد علمها بهذا النبأ: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء "فقال الله معقباً على مقالتهم هذه، دالاً على الحكم والأسرار الكامنة وراء هذا الوجود ووراء سفك الدماء والإفساد الظاهري الذي لا بد منه لما جبل عليه هذا المخلوق الغريب من الطباع والغرائز: "قال إني أعلم ما لا تعلمون" فكأنه تعالى قد قال للملائكة رداً على سؤالهم وتعجبهم: نعم هو يسفك الدماء ويفسد في الأرض ولكن بوجوده ينطوي على أسرار وفوائد وحكم تفوق أضرار هذا السفك للدماء وهذا الإفساد في الأرض. وهذه الفوائد والحكم هي

http://www.ithar.com

بلا شك نتيجة لما امتاز به من العقل والذكاء والإستعداد للترقي المطلق في كل معنى من معانيه وأمر من أموره. فهو بمثابة أن يقال: حقاً هو يظلم ويشب الحروب ويفعل غير ذلك من الآثام القانونية والشرعية ولكن هذه الأفعال تتلاشى أمام فضيلته الحقيقية وميزته البارزة الظاهرة وهي موهبته العقلية والأدبية التي لا يقف ترقيها وتقدمها عند حد.

ثم في هذا الرد الذي أجاب الله به الملائكة إشارة تكاد تكون جلية إلى أن هذا السفك للدماء في الحروب وغيرها، وإلى أن هذا الإفساد في الأرض هو وإن كان في ظاهره وفي ملمسه القريب، وفي حكمه القانوني شراً إلا أنه ضروري، لأنه من أسباب تقدم الإنسان وأسباب نضجه وبلوغه رشده وأسباب وصوله إلى الدرجة الرفيعة التي هيئ للوصول إليها بإستعداداته المختلفة كما أشار إلى ذلك الكتاب الكريم في آيات كثيرة صريحة. فلولا هذه الحروب وهذا التنازع والتسابق إلى الحياة وإلى سرقة الحياة – ولولا شحذ القوى الذهنية لخدمة الحروب والتنازع والسباق إلى إمتلاك الحياة – ولولا هذه الغرائز والطباع التي ركبت في الإنسان وساقته إلى سفك الدماء وإلى مظالمة الآخرين والعدوان عليهم – لولا هذا كله ولولا سواه أيضاً لما قدر الإنسان على أن يبلغ هذه الدرجة التي بلغ، ولما ظفر بكل هذه الأشياء التي بها قد ظفر، ولما برزت موهبته العقلية هذا البروز. فإن الحروب بل وكثيراً من هذه المظالم هي أعظم صقل تصقل به القوى، وأعظم موقظ ومنبه لما يكمن فيها وفي طبيعتها من معان سامية. فكأن هذه الشرور هي شرور في الظاهر فقط، وكأنها بمثابة العملية الجراحية القاسية الموجعة في أولها، المفيدة المصلحة في نتيجتها – أو كأنها إمتصاص من أخلاق الإنسان الفاسدة أو التي يقال إنها فاسدة قانوناً وعرفاً... والقصاص حياة كما قال الله في كتابه: "ولكم في القصاص حياة." فأصبح هذا الجواب من الله للملائكة تنبيهاً واضحاً إلى فضيلة هذا الإنسان وإلى قيمته وإلى ما يشتمل عليه وجوده وأعماله – حتى سفكه الدماء وإفساده في الأرض – من فوائد ومصالح. فمن ذم الإنسان واستصغر أمره أو قدح في فضيلته من أجل بعض أفعاله كخروجه وتنازعه على البقاء الموجب للتظالم، ومن أجل إتيانه ما يسمى فساداً أحياناً كان فاعلاً قائلاً ما فعلته وقالته الملائكة لما أن تعجبت من جعله خليفة في الأرض. ولكن الملائكة قد رجعوا عن هذا التعجب أو عن هذا الإستفهام أو الإعتراض لما أن دلهم الله

على الحكمة البالغة في هذا الجعل والإستخلاف. أما من بقي مصراً على مذمة الإنسان وقدحه فيه، فقد بقي مصراً على ما رجعت عنه الملائكة، ومقلداً لهم في ما تركوا وتبرأوا منه، ومصراً على ما أبان الله أنه غير صحيح وغير حق.

أما قوله "وعلم آدم الأسماء كلها" فهو تصريح بعلم الإنسان كل شيء فقد وكده بقوله "كلها" فإن من علم الأسماء علم المسميات وإلا فلا معنى لعلمه ولا فائدة منه، والقصد للمسميات لا الأسماء، والأسماء لم توضع إلا لمسمياتها. فمن عرف إسم شيء ولم يعرف مسماه كان ذلك لغواً وكان ذلك العرفان جهلاً. على أن من عرف إسم أمر من الأمور ولم يعرف ما المراد به لم يسم عارفاً ولا عالماً بذلك. فإن المعرفة والعلم للأشياء لا للأسماء. ولو أن إنساناً علم لغة من اللغات – أسماءها وأفعالها وحروفها – ولم يعلم مدلولاتها ولا المراد بكل لفظ منها لما قيل إنه يعلم اللغة. وعلى كل حال فإن من المستحيل على عاقل أن يتعلم الأسماء كلها ثم يبقى جاهلاً بمسمياتها، بل إذا علم هذه فقد علم تلك.

وقوله "ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء" واضح في أن المراد علم الأشياء لا علم أسمائها. ومن الواجب أن يعلم هنا أيضاً أن موضوع اللغات يجب أن يكون موجوداً قبل اللغات نفسها، فالناس إنما يضعون لغاتهم – أفعالها وأسماءها وحروفها – ليدلوا بها على أشياء موجودة مائلة أمامهم، ولا يمكن أن توضع اللغة – لا أفعالاً ولا أسماء ولا حروفاً – قبل وجود الأفعال والمسميات نفسها حقيقة. فكأن اللغات إشارات أو صفات. ولا تعرف الصفات ولا الإشارات إلا بمعرفة المشار إليها الموصوفات. فتعليم الإنسان الأسماء كلها وعلمه إياها صريح إذن في سعة علومه وفي أن معارفه ليست لها نهاية ولا غاية بل هي قابلة للإتساع وقابل هو للتعلم والإستزادة حتى يعلم الأسماء كلها ويعلم دلالتها على مسمياتها. ومعنى هذا أن يعلم كل شيء. وقد دلت كشوفه العلمية الأخيرة ومعرفته كل ما أمامه – حتى استطاع أن يعرف عناصر الطبيعة وأن يعدها عداً، وأن يعلم ما هي مركبة مكونة منه – على هذه الحقيقة القرآنية والنبوة الإسلامية.

وعرض الله الأسماء كلها على الملائكة وسؤاله إياهم إنباءه بها وعجزهم عن معرفتها، وإعترافهم بالعجز، ثم أمره لآدم أن ينبئهم، وأنباؤه إياهم بها يدل ذلك كله من وجوه كثيرة على فضيلة الإنسان العلمية. فإنه يثبت أولاً أنه أعلم من

http://www.ithar.com

الملائكة. ومن المفروض المعلوم أن الملائكة ذوو مكانة علمية ظاهرة، فمن كان أعلم منهم كانت فضيلته العلمية لا تدفع. ثم فيه ثانياً أنه جعل مقام الإنسان منهم مقام المعلم. ثم فيه ثالثاً أنه أراد تعالى أن يظهر للملائكة أنفسهم فضيلته بهذا الأسلوب وهذه الطريقة التي لا يخفى ما فيها من التحدي والتعجيز لهم ومطالبة الإعتراف له بهذه الميزة الكبرى.

وقوله "إن كنتم صادقين" يشير إلى أن مذمتهم للإنسان وإستصغارهم شأنه وحكمهم عليه بسفك الدماء والإفساد في الأرض، وزعمهم أنهم هم خير وأحسن منه، لأنهم يسبحون له ويقدسون اسمه: يشير إلى أن ذلك غير صواب وغير حق. ولهذا قال "إن كنتم صادقين" أي صادقين في الإتهام والقدح والإدعاء. ففيه دفاع جلي قوي عن الإنسان. وقوله بعد إنباء آدم لهم: "قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون" إبطال ورد لقدحهم في الإنسان ولزعمهم أنه مفسد مقاتل لا خير فيه، وإثبات أن هذه الرذائل والشرور – أو ما حسبوه رذائل وشروراً – تذوب في غمار فضائله العقلية وترحض بتيار علمه... فهذه أساليب متعددة أريد بها إظهار المكانة الإنسانية من الناحية الأدبية. وقد صدقت هذه المكانة وختمت بخاتم لا يقبل التزوير والإدعاء وهو أمر الله للملائكة بأن يسجدوا له، وسجودهم، وطردهم تعالى لمن أبى السجود، وحكمه الأبدي عليه بالكفر والهلاك. وأوامر الله العليم الحكيم ليست عبثاً وليست مجرد أوامر خالية من الحكمة والقصد والتعليل. فما أمر الله الملائكة – وهم المقربون لديه – بالسجود له لفضيلة فيه ليست فيهم ولميزة ذهنية فضل بها عليهم. وكذلك ما طرد من امتنع عن السجود له إلا لأنه امتنع عن فعل شيء جميل واجب فعله. والله أعلم حيث يأمر وينهي، وحيث يبعد ويقرب، وحيث يضع رسالته.

ومن الآيات المسوقة لبيان هذه المكانة قوله تعالى "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم." والمراد هنا بالتقويم الذي وصف بأنه أحسن تقويم هو تكوين الإنسان – من حيث خلقته العامة ووضع أعضائه وأجزائه وكل ما فيه وضعاً مبدعاً يؤدي من حيث الأعمال والوظائف إلى الإبداع والإحكام. فالمخ والرأس والقلب واليدان والرجلان والعينان واللسان والأذنان وكل ما ظهر وما بطن منه وصفات هذه الأشياء كلها قد كونت تكويناً هو الإبداع والإحكام. ولا يمكن أن يقال بصدق

وحق إن شيئاً من الأشياء قد قوّم أحسن تقويم إلا إذا كان يستطيع أن يؤدي وظيفته ويؤدي الغرض المنشود منه أحسن تأدية، سواء في ذلك الموجودات الجامدة والموجودات الحية النامية. فالإنسان إذن من ناحية آلات الفهم والعقل والشعور والإدراك فيه وآلات العمل كلها قد جاء في أحسن تقويم وتكوين، والإنسان إذن قد أعد من الناحية الأدبية والعقلية والخلقية ليكون المثل المقصود الأعلى وإن كان هذا لا يحصل إلا بالتدريج والبطء كما تقضي نواميس التطور نحو الكمال والإستواء، ذلك التطور الذي يبدو لنا أنه بطيء وأنه مسرف في البطء وإن كان بالنسبة لعمر العالم سريعاً مسرفاً في السرعة.

وليس من الممكن أن يكون الثناء على الإنسان بحسن التقويم عائداً إلى صورته الظاهرة ومنظره الخارجي فقط لأن في المخلوقات ما هو أجمل وأحسن منه من هذا الوجه ولأن الله قد ذم حسن الصورة المجرد من الفضيلة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: "وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة – إلى قوله: "قاتلهم الله أنى يؤفكون" ولأن الله قال بعد ذلك: "ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات" والذين آمنوا وعملوا الصالحات يردون أيضاً أسفل سافلين وكان المراد بذلك الصور والمظاهر.

وقال تعالى: "وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون" ففي الأرض وفي نفس الإنسان آيات للموقنين! فما هي الآيات التي في نفس الإنسان والتي لفت الله الإنسان إلى نفسه من أجلها ودله عليها؟ أعظم الآيات في النفس الإنسانية هي القوى العلمية والأدبية والعقلية والخلقية. وإلا لو كان القصد هو البناء المادي المنظور لما كان هناك ما يميزه على المخلوقات الأخرى حتى يستحق به أن يلفت إليه خاصة وأن ينبه عليه لوحده في هذه الآية، وهو مما في الأرض من هذه الناحية. فلماذا ذكر تخصيصاً بعد التعميم إن لم تكن الإشارة إلى ميزاته الجليلة الكبيرة لا إلى ما يشاركه فيه كل شيء في الأرض من المخلوقات.

وفي قوله "أفلا تبصرون" نعى على هؤلاء الذين لا يبصرون الآيات الكامنة في أنفسهم وفي النفس البشرية العامة ولا يحاولون الإنتفاع بها ولا إستخدامها، وعلى هؤلاء الذين لا يرون هناك من الكنوز الذهنية أعظم مما في الأرض من كنوز الذهب والفضة والفحم والنفط وغيرها مما لا يقوم بثمن – تلك الكنوز التي لولا كنوز النفس العلمية لما أمكن إخراجها ولما أمكنت معرفتها ولما علم كيف تخرج

http://www.ithar.com

ولا ماذا يصنع بها لو أخرجت.

ومن الجميل جداً، البالغ في جماله أقصى الغايات أن يجمع الكتاب بين الآيات الموجودة في الأرض والآيات المستقرة في النفس الإنسانية، موجهاً إليهما معاً، ناعياً على من لم يبصرهما، وعلى ما لم ينتفع بهما. فإن فيهما كليهما كنوزاً هي آيات بل غايات. والفرق بينهما أن كنوز هذه مادية وكنوز تلك أدبية ذهنية، وأن الإنتفاع بأحدهما وإستخراجه متعذر إلا إذا عرف الإنتفاع بالآخر وعرف إستخراجه. ومن عجز عن أن يبصر كنوز الأرض التي تحت قدميه أو كنوز نفسه التي بين جنبيه كان حقاً أخسر الخاسرين وكان حقاً ممن لا يبصرون وممن يجدر أن يقال لهم "أفلا تبصرون."

ومن المصائب المؤلمة أننا معشر المسلمين الذين نزلت عليهم أمثال هذه الآية منذ أربعة عشر قرناً تقريباً لا نزال غير مبصرين لكنوز الأرض التي هي آياتها، ولا لكنوز أنفسنا التي هي إستعداداتها، ولا نزال محتاجين في هذه وهذه إلى الآخرين ليخرجوها لنا وليبصروها ويروها، ولا نزال عاجزين عن أن نبدي أقل عون ومساعدة صادقة فنية في عملية هذا الإخراج والإستخراج بل وعملية الإبصار، ولا نزال حريين بأن يقال لنا "أفلا تبصرون" مكررة علينا آية نزلت منذ ألف وأربعمائة سنة. فهذه الآية أقوى أمر لنا بأن نحاول إبصار أنفسنا وإبصار ما تنطوي عليه من القوى العجيبة. فأين من يبصرون! وإن العمى قبيح ولكن أقبح أنواعه هو العمى عن النفس لأن من شقي بعدم إبصاره لغيره كان أشقى جداً إذا لم يبصر نفسه.

وقال تعالى: "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان." البيان هو الإبانة عن الأشياء. وقد أطلق هذا البيان الذي يراد به الإبانة ليدلنا على أنه يعني به الإبانة المطلقة العامة. ولا يبين عن الأشياء إبانة مطلقة عامة إلا من علم الأشياء وعلم حقائقها وتفاصيلها وخصائصها علماً عاماً شاملاً، وعلم ما يجوز لها وما يستحيل عليها وما يناسبها وما لا يناسبها وما يصاحبها ويفسدها وهكذا. وإلا فلن يكون مبيناً عنها إبانة صحيحة كاملة فالإنسان إذن معد مهيأ كي يكون مستطيعاً البيان عن هذا الوجود الذي يحيط به والذي لا يستطيع الإنفصال عنه. وهذا لا يكون إلا إذا علمه علماً حقيقياً وعلم كل ما يتصل به. ونتيجة هذا هي الإحاطة العلمية الشاملة... والآيات في هذا كثيرة جداً

من العبث محاولة إستقصائها وجمعها وشرحها في هذه الكلمة الإستطرادية القصيرة العجلى.

ومن الأحاديث التي يحسن إيرادها هنا حديث صحيح مشهور قدسي هو قوله صلى الله عليه وسلم حكاية لما قاله الله: "ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها"... ومن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله – وهذا بلا ريب على غير ظاهره – فلا بد أن يكون بصره نافذاً وسمعه واعياً وعمله موفقاً قوياً، ولا بد أن يكون له من القوى والأعمال ما لم يعهد الناس وما لم يعرف الناس، ولا بد ألا يكون هناك حدود تحده ولا قيود تقيده إذا شاء أن يفكر وأن يعلم وأن يعمل وأن يرى ويسمع، ولا بد أن يكون مستطيعاً أن يصنع ما يشبه أن يكون خارجاً عن الطاقة البشرية المعروفة وما يكاد يضاف إلى قسم المعجزات، ولا بد أن تبقى مواهبه العاقلة متجددة متوثبة لا يمنعها مانع ولا يهرب منها هارب، ولا يقال لشيء من الأشياء – كائناً ما كان – إن هذا فوقها أو إنه بعيد عن متناولها أو إنه ليس مما يدين لها. والله حينما خلق هذا الوجود العجيب الجميل أراد له أن يبلغ في الأجل المعلوم رشده وكماله وأن يخرج كل طاقته الكامنة على أحسن وجه وأجمله، ولكنه تعالى أراد أن يبلغ ذلك بأسباب إذ قد ربط كل شيء بأسباب من ورائها أسباب ليكون كل شيء متحركاً سائراً عاملاً لا جامداً ولا ساكناً. ثم أراد تعالى أن تكون أسباب هذا النضج والبلوغ العقلي بواسطة أعظم وأفضل ما فيه، وكان أفضل وأعظم ما فيه هو الإنسان فأراد تعالى أن يكون الإنسان هو الذي يبلغ به رشده وكماله، فأطلق لعقله العنان ليظل متنقلاً من طور إلى طور ومن سن عقلية إلى أخرى حتى يصل بنفسه وبالعالم معه الحد المعلوم المقدور على حسب السنة الموضوعة. وهو بتنقله هذا وبقيادته للعالم إنما يبصر ببصر الله ويسمع بسمع الله ويبطش بيد الله ويمشي برجل الله –أود أن الله يكون حينئذ سمعه وبصره ويده وقواه العقلية والبدنية. لأنه بتطوره وتنقله– سائقاً معه العالم – يقوم بدور المنفذ لنواميس الله، العامل على إبلاغ سنته تعالى نهايتها بما أعطاه من الخصائص المختلفة. والحكيم إذا ندب أحداً للقيام بأمر جليل يريده، أو ندبه لتأدية رسالاته أو إحدى رسالاته سلّحه بكل ما يلزم للمعركة وكمله بأنواع الكمال الذي لا بد منه لأجل إتمام

http://www.ithar.com

الرسالة. والإنسان بلا نزاع هو سيد هذه الأرض وقائدها وسيد ما فيها. فلا محالة من إختصاصه بخصائص القائد السيد وإلا كانت سيادته وقيادته باطلتين مرفوضتين قائمتين على الجور والظلم، ولكنهما سيادة وقيادة سلمهما الجميع بلا قيد ولا شرط. فلا محالة من أن تكون صلته – أي صلة الإنسان – بالسيد الأعلى، أي بالله، صلة الملهم المخصوص، أو صلة من يكون السمع والبصر واليد والرجل ليحسن القيادة وفاق ما يريده القائد الأعلى.

ولعل من أظهر الدلائل على هذا الإختصاص وعلى هذا القصد أن الله قد أهّل الإنسان لتلقي رسالاته التشريعية، وأهّله لمكان وحيه، وسما به وقربه حتى صار منه موضع النجي الكليم، فصار المبلغ عنه، وصار أنبياؤه ورسله منه. ومن كان هكذا فلا يمكن أن يكون محدود المدارك من حيث الإجمال، ولا أن يكون محجوراً على تفكيره ونظره بنوع من أنواع الحجر، ولا مضيقاً عليه بصورة من صور التضييق. فإن من استطاع أن يتلقى عن الله فقد سما إلى أبعد سماء وبلغ مكان الإرتفاع فوق كل الوجود. وهذا الإرتفاع على كل الوجود يجب أن يكون بحق وجدارة وهو لا يكون كذلك إلا إذا كان إرتفاعاً من حيث المعنى والحقيقة كما كان من حيث الظاهر والصورة. ومن ارتفع على الوجود كله بمعناه كان معنى هذا إخضاع الوجود له، وإخضاعه لا يمكن إلا بفهمه وفهم أسراره. فالإنسان إذن يجب أن يكون فاهماً هذا الوجود مدركاً كل ما فيه إدراكاً وفهماً تامين صحيحين. وإذا كان كذلك فلا حدود ولا قيود. ولكن يجب أن يعلم أن هذا الإدراك والفهم من حيث الجملة لا من حيث الأفراد. فإن معارف كل فرد محدودة مقدرة، ومعارف الفرد دون معارف الجماعة ومعارف الجميع.

هل الإنسان غير عظيم، أو هو أهل لأن يساء به الظن ويساء بإستعداده الذاتي؟ إن هذا السؤال لا يمكن ولا يصح أن يجاب عنه بالألفاظ وإنما يجب أن يكون جوابه بالواقع والحقائق المشاهدة الملموسة.

إن للإنسان حدين من حيث وجوده: حد هو وجوده الأول يوم أن رأى ورأته هذه الأرض، وحد هو تاريخه الموجود الآن الحاضر المشهود أمامنا. وما بين هذين الحدين أو الطرفين هو جملة تاريخه وأعماله الواقعة التي يمكن أن تكون له ويمكن أن تكون عليه، ويمكن أن تدل على أنه غير عظيم وأن تدل على أنه عظيم.

لا محالة من أن نتصور الإنسان في بداية وجوده عارياً من كل معرفة كما كان

عارياً من كل لباس. وعلمنا أن هذا التصور صحيح لا يحتاج إلى عناء ولا بحث طويل. فإننا لا نزال نشاهد الإنسان – بعد بلوغه هذه الغاية العظيمة من المعارف والعلوم – يأتي إلى هذه الدنيا حينما يأتي عارياً من جميع المعارف. جاء إلى هذه الحياة – ولا مجال للجدل في كيف جاء – كما يجيء الأطفال اليوم على أحسن تقدير. على أن من الواجب أن نعتقد أن هنالك فرقاً عظيماً من حيث الإستعداد الكامن بين أطفال اليوم والإنسان الأول، لأن أطفال اليوم يحملون في دمائهم تراث الآباء والأجداد كله بخلاف الإنسان الأول الذي جاء لا يحمل معه سوى ما ورث من منبته إن كان فيه ما يورث... نعم جاء إلى الحياة كما يجيء أطفال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس: لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة دلالة على الكلام، ولا زراعة ولا صناعة، ولا شيئاً مما هو ضروري لذلك. فهو لا يعرف أن يبني بيتاً يسكنه ويأوي إليه إتقاء ما تأتيه به الطبيعة ولا أن ينسج ويخيط له ثوباً يلبسه، ولا ناراً ينضج عليها ما يأكله وتوفر له الدفء والحرارة، بل لا يعرف وسيلة من وسائل التفاهم، والتفاهم هو أول الخطوات. فلا يدري ما يجول بخاطر من حوله بل لا يدري أن لهم خواطر تجول بالمعاني والأفكار والخطرات لا يدرك شيئاً مما يحيط به. فيفزع من كل ظاهرة كونية: يرى البرق فيفزع، ويسمع الرعد فيطير لبه هلعاً، وتهب الريح فيتقسمه الخوف والرعب، وينزل المطر فلا يعلم كيف يفعل ولا كيف يفهم، ويرى جريان الأنهار والمياه فيحسبها تجري بالحياة والإرادة مثله، ويحسبها قادرة على إيذائه، بل يرى الظلام فيظنه يتراقص بالأشباح المؤذية المهاجمة وبكل ما يخيف ويذعر... أما طلوع الشمس وغروبها – وكذا النجوم والكواكب – فأعظم ما يملأ جوانحه روعاً... وهكذا كان لا يعلم شيئاً ولا يأمن شيئاً... والخوف عادة وليد الجهل، فإن من يجهل الشيء يخافه. وقد نشأ عن هذا الخوف وعن هذا الجهل أن نمت فيه فكرة العبادة لهذه الظواهر الكونية ولهذه الأشياء المتحركة المضطربة. فإن الخوف يحدث التفكير في دفع ما يخاف وفي إتقائه. والجاهل الضعيف إنما يدفع عن نفسه ويتقي ما يرهب بالملق، والملق له صور كثيرة إحدى هذه الصور البكاء والضراعة – كما يفعل الأطفال. والبكاء والضراعة هما أعظم مظاهر العبادة... فراح يعبد كل ما يرى ويسمع عبادة ساذجة حقيرة. فكان الإنسان إذ ذاك يتلخص في شيئين: في الجهل المطلق بكل شيء، وفي عبادة كل شيء متقلب

http://www.ithar.com

مضطرب. ونعود فنقول مرة أخرى: إن أحسن وأصدق صورة ترسم للإنسان في ذلك العهد هو الطفل من حيث العري من كل لباس علمي وبدني.

والآن لننتقل نقلة فكرية، ولنرجع رجوعاً سريعاً خاطفاً من تلك العهود الموغلة في القدم، ولنمر بتاريخ ثلاثمائة ألف سنة أو تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً من تاريخ هذا الإنسان الطويل البطيء من غير أن نقف على مرحلة من مراحله حتى نقف وقفة طويلة ممعنة عند تاريخنا اليوم وعند الإنسان في القرن العشرين. ولنحاول أن ننسى ما بين هذين التاريخين من تاريخ، ولنأخذ الفرق بين هذين التاريخين أو هذين العهدين أو هاتين الصورتين ولنجعله هو مجموع ما عمله الإنسان بفكره وجسمه... إن أول نظرة إلى صورتي الإنسان في عهديه وتاريخيه لتملأ العين وتملأ القلب إعجاباً بهذا الإنسان الصغير البدن، المحدود بالحدود المادية الضيقة.

ماذا نرى الآن في هذه الحياة التي تموج بأعمال الإنسان وماذا نرى من القوى المادية والفكرية التي أوجدها هذا المخلوق وجعلها في خدمته وملكاً له؟ كيف استطاع الخروج من تلك الظلمات الأزلية حتى وصل إلى هذا العصر، وكيف استطاع الوصول إليه في سيره المتعثر واستطاع أن يسدد وقع أقدامه المتحركة في الظلام بدون أن يكون له هاد إلا طبيعته، ومرشد إلا حاجته ونور يبصر به السبيل إلا أمله، وبدون أن يكون له قوة دافعة إلا إستعداده المولد للطاقة بعد الطاقة بدون عطل أو توقف؟ لقد بدأ في إيجاد تاريخه وبناء حضارته بداية توجب الرثاء والإعجاب معاً: فكر في أنه محتاج إلى أن يتفاهم أفراده، وفي أن هناك حاجات مشتركة يجب أن يعلمها كل فرد – أو على الأصح فهم كل فرد في نفسه أنه يريد أن يفهم عن غيره وأن يفهم غيره ما في نفسه وما عنده وما يضطرب في جوانحه. ولكن ما كان يعرف وسيلة واحدة من وسائل التفاهم. فراح يحاول أن يتخاطب وأن يتفاهم بالأصوات التي لا مقاطع ولا معاني لها كالأطفال سواء حينما يلجون في طلب حاجاتهم بالبكاء والصراخ الذي هو تصويت فقط. فظلت هذه هي وسيلة تخاطبه وتفاهمه الوحيدة أزماناً يعجز التصور عن تحديدها تحديداً دقيقاً. ثم ترقى درجة بقصد أو بغير قصد بأن ذهب يتخذ لنفسه طريقة للتفاهم والتخاطب أفضل من التصويت المبهم، فذهب يتخاطب بالإشارات والحركات... وهذه طبعاً أفضل وأوضح من الوسيلة الأولى لأنها أدنى إلى

التحديد والإفهام. وإن الأطفال ليتبعون طريقة أسلافهم في التنقل من وسيلة إلى وسيلة أخرى محاولين الإفهام والإفصاح. فإنهم بعد أن يظلوا مدة معينة يتكلمون ويأمرون وينهون ويطلبون بالأصوات المجردة يذهبون بعدها إلى الإستعانة بالإشارات والحركات. ومن العجيب أن محاولة الإفصاح عن الغرض بالإشارة والحركة والتمثيل البدني لا تزال ملازمة الإنسان اليوم... ثم غبر أحقاباً بعد أحقاب يدأب لنفسه ويكدح لها كدحاً متواصلاً عنيفاً، ويصنع التجارب تلو التجارب ويخرج النماذج إثر النماذج، مستعيناً بوسيلتيه الأوليين: الإشارة والحركة حتى ظفر بعد ما لا يمكن تخيله من العناء والمشقة والزمان بما يصح أن يسمى أول لغة إنسانية ذات مقاطع وحروف مفهومة... وهنا يجب أن يقال بحق وصدق: لقد استطاع الإنسان أن يخرج بغنم عظيم وأن يمضي أشواطاً هائلة في طريق أهدافه وفي طريق هذه الحضارة الحاضرة التي يتمتع الإنسان اليوم بها. إذ قد استطاع بمعرفته أول لغة أن يضع حداً فاصلاً بين عهود الطفولة – أو الحيوانية على رأي آخرين – وبين العهود الإنسانية، وأن يخلي الطفولة والحيوانية وراءه بحيث لا يخشى عليه الرجوع إليها مرة أخرى. ويجب أن يسمى هذا العهد أول تاريخ للإنسانية وأول نقطة استطاعت الوثوب منها. ولو أن الإنسان بقي عاجزاً عن الظفر باللغة لبقي عاجزاً عن بلوغ كل ما بلغه، ولبقي عاجزاً عن أن يصنع له تاريخاً يفوق تاريخ الحيوان.

ونحن لا نستطيع أن نقدر قيمة اللغة ومقدار ما أنفق في سبيل الحصول عليها إلا إذا تصورنا جمعاً من الأطفال الذين لم يسمعوا حرفاً واحداً من حروف اللغات المختلفة ألقى بهم في إحدى الجزائر التي لم يقطنها الإنسان بعد ثم تركوا وشأنهم على أمل أن يتوصلوا فيما بينهم إلى لغة بها يتفاهمون ويتخاطبون، وتصورنا كيف يخفقون وكيف يعجزون عن تحقيق هذا الأمل وعن الوصول إلى هذه الأمنية.

أما بعد اللغة فقد أمكن أن تتلاقح الأفكار وأن يغذي بعضها بعضاً وأن يصبح كل فكر ملكاً مشاعاً ورأياً إنسانياً عاماً، في استطاعة كل فرد من أفراده أن يصيره ملكه وفكره. لهذا كله ولشدة الوثبة التي وثبها الإنسان وبعد الخطوة التي خطاها في مجموع قواه الذهنية والشعورية والجسدية وعظم النقلة التي انتقلها والمسافة التي خطاها راحت معارف الإنسان وأعماله تتسم بسمات

http://www.ithar.com

النضج والتقدم المستمر العجل. فعرف أشياء من الزراعة والصناعة ولكنها كانت بلا ريب أولية، وعرف أشياء أخرى كثيرة غير الزراعة والصناعة مما عد مميزاً للإنسان عن المخلوقات الأخرى... وبعد أشواط في مضمار الحياة الإنسانية البحتة لا يمكن تحديدها تحديداً تاماً استعملت فيها الخطوط والرسوم والصور التافهة والأشكال المشوشة والتجارب العديدة المضنية ظفر الإنسان بإختراع آخر لا يقل عن إختراع اللغة وسيلة ونتيجة... هذا الإختراع هو إختراع الكتابة، أو ما يمكن أن يدعى كتابة صحيحة. وهذان المخترعان: اللغة والكتابة هما أعظم الأسس التي شيدت عليها المدنية البشرية كلها، بل هما الشرطان الأولان اللازمان لها. ولولاهما لظل البشر حتى اليوم في جهالاتهم الأولى النكراء... ولا يقل إختراع اللغة والكتابة عن أكبر مخترع نالته الإنسانية في كل عهودها. بل كل المخترعات التي جادت بها عقول القرن العشرين والقرن التاسع عشر تتضاءل قيمتها وفوائدها إزاءهما وإزاء فوائدهما وقيمهما... وعلى هذا لا يمكن أن يعد مخترعو القرن العشرين والقرن التاسع عشر أجل خدمة للإنسان وأسرع خطوا به إلى الأمام من مخترعي اللغة والكتابة.

أخذت المعارف والعلوم والأعمال الصناعية والزراعية وغيرها تتساوق وتتدافع بعد هذا بسرعة عظيمة، وأخذت كلما تقدمت خطوة ازدادت سرعتها واتسع المجال أمامها إذ كأن الخطوات التي تخطوها والمكاسب التي تكسبها، والفتوحات التي تفتحها تصيرها قوى وطاقات تمنحها قوة الدفع وقوة الإندفاع وقوة الإستمرار... ولا شك في أن المخترعات التي تمت في القرن التاسع عشر أكثر من المخترعات والكشوف التي تمت في تاريخ الإنسان كله، وفي أن المخترعات والكشوف التي تمت والتي ستتم في القرن العشرين ستفوق في كثرتها وضخامتها مجموع المخترعات والكشوف – وفيها مخترعات القرن التاسع عشر وكشوفه – التي تمت في جميع العصور الخوالي. وهكذا.

وسيكون لهذا نتائج طبيعية: إحدى هذه النتائج أن الإنسان كلما تقدم وكلما ازدادت علومه تضاعفت قدرته على التقدم وعلى السير في سبيله وعلى إدراك العلوم تضاعفاً مقدراً بمكاسبه العلمية والكشفية والعقلية تقديراً رياضياً لا تختلف نتيجته. والشأن في هذا كالشأن في سائر القوانين الرياضية. فإنه إذا ضرب عدد ما في عدد آخر ثم ضرب العدد المضروب في الناتج من عملية الضرب

مرات عديدة فإن الناتج من آخر عملية يفوق الناتج من جمع جميع الناتج في العمليات الأولى كلها... ونتيجة هذه النتيجة أن تقدم الإنسان سيبقى مستمراً مضروبة سرعته في كل الخطوات التي خطاها في تاريخه كله. ومعنى هذا أن تقدمه لن يتوقف البتة، بل يأخذ في طريقه حتى يبلغ أقصاها ومنتهاها إن كان لها منتهى. ولو ضرب عدد في عدد مهما كانا صغيرين على أن يضرب العدد المضروب في كل ناتج لاستغرقت هذه العملية كل الأعداد الموجودة بل والمفروضة. وهذا برهان رياضي قاهر على أن أشواط الإنسان ستنهي المعركة كلها وستوصله إلى كل أهدافه وستضعه في أقصى الطريق وستجعله يتقدم حتى لا يجد متقدماً ويعلم حتى لا يدع مجهولاً إلا أن توقف هذه العملية الرياضية الإنسانية، ولكن لا سبيل إلى وقفها إلا بوقف الحياة فيه لأن هذه العملية هي عملية الحياة، فما دام الإنسان حياً فلن يقف عمل حياته شيء لأن الله القدير العليم قد أراد هذا كله لحكمة عليا.

غير أن من الممكن أن يوجه إلى هذه النتيجة الصادقة في ظاهرها ومقدماتها إعتراض بأن يقال: إننا نشاهد – كما نعلم – أن سير الإنسان إلى الأمام يقف أحياناً كثيرة وقوفاً قد يكون الجمود نفسه حتى يبدو أنه لن يسير مرة أخرى وينام حتى يخيل إلى من يفكر بأنه لن يستيقظ. بل قد يأخذ في الرجوع إلى الوراء والسير القهقري... وقد تنتاب هذه الحالات وهذه الأعراض الرجوعية أحياناً الإنسانية جمعاء وتنتاب أحياناً أخرى أمة دون أمة وفريقاً دون فريق وتكاد توجد هذه الأعراض في كل زمان.

ولكن من السهل أن يقال إجابة عن هذا الإعتراض السليم في ظاهره: إن عملية التقدم مستمرة بلا توقف وبلا رجوع إلى الوراء بحال من الأحوال. أما ما يشاهد مما يظن توقفاً أو تأخراً فليس سوى هدوء ظاهري – أي إن الحالة لا تعدو أن تكون طوراً من أطوار الكمون الذي يصيب كل شيء ويوجد في كل شيء. ومثل هذا قطعة من الأرض تزرع وتستغل فإنها في حالة زراعتها وإستغلالها لا يظن ولا يقال إنها في حالة تأخر وضعف في الظاهر ما دامت غلتها غير متناقصة. أما إذا تركت هذه القطعة من الأرض بدون زراعة وبدون إستغلال فإنها في الظاهر لا تعطي شيئاً ولا تأخذ شيئاً أما في الحقيقة فإنها إذا تركت كذلك تقوى وتتفاعل العناصر الكامنة فيها مع أشعة الشمس ومع الهواء ومع كل عوامل

http://www.ithar.com

التعرية حتى تصير بعد مدة من الزمان في قوة تمكّنها من الإغلال والإثمار الكثير القوي إذا ما زرعت بحيث يتبين بعد زراعتها وبعد تمكينها من إظهار طاقتها أنها ما كانت في حالة تأخر ولا في حالة جمود وإنما المسألة مسألة هدوء في الظاهر فقط. بل نقول: إن كل شيء له كمون وظهور. فالظهور هو مظهر يدل على الكامن ولكن عدم الظهور لا ينفي الكمون أو لا ينفي الكامن. فقد يكون تقدم الشيء مهما كان هذا الشيء ظاهراً وباطناً أي ظهوراً وكموناً، وقد يكون كموناً فقط. وليس من الممكن أن يكون ظهوراً صرفاً. فإن الشيء الذي لا حقيقة له لا يمكن أن يكون له مظهر من المظاهر. ونحن إذا رأينا أرضاً هادئة لا يصح أن نقول إنه لا براكين ولا زلازل فيها تتوثب للإنطلاق والإنفجار والخروج بمجرد الهدوء الذي نشهده. وإذا حصلت هذه الإنفجارات والهزات، أي البراكين والزلازل وجب الإعتقاد بأنها أثر من آثار الداخل أي الكامن قبل حدوث الظاهر، وإذا لم نر نفطاً نازاً على وجه الأرض ومتدفقاً جارياً لم يجز لنا أن نقول إن الأرض خالية من هذا السائل النفيس. ولو قلنا هذا لكان مثلنا كمثل من قال إن الإنسانية قد تقف وقوفاً تاماً أو ترجع القهقرى لأنها تتخلى أزماناً كثيرة عن إخراج الكامن من قواها والساكن من إستعدادها... فالتقدم الإنساني الذي نتحدث عنه ونذكر أنه مستمر بدون توقف هو التقدم في المدارك والعقول وكل ما يسمى معاني إنسانية وأخلاقاً إنسانية وقوانين إنسانية. ولكن هذا التقدم الإنساني قد يكون بارزاً لوجود عوامل الإبراز، وقد يكون كامناً كما تكمن قوى الطبيعة المختلفة: كما تكمن الكهرباء والمغناطيسية والجاذبية وكما تكمن طاقة الحديد والفحم فيهما. وهكذا... بل كما تكمن صفات الإنسان العليا فيه كالشجاعة والمروءة والنجدة والكرم والذكاء وسواها حتى يوجد ما يظهرها... فالتقدم الإنساني إذن مستمر لا يتوقف فكيف الرجوع إلى الوراء. والإعتراض المذكور إعتراض يرد على هذه الحقيقة العلمية.

والنتيجة الثانية أن هذا التفاوت الموجود العظيم بين الأمم والشعوب سيظل مع تقدمها كلها باقياً مع حفظ النسبة – بمعنى أن الأمة التي قطعت ألف شوط إلى المدنية أو في المدنية ستبقى النسبة بينها وبين الأمة التي قطعت مائة شوط فقط كالنسبة بين رجل يملك ألف جنيه وبين رجل آخر يملك مائة جنيه إذا اتجر بالألف وبالمائة وكان الربح السنوي أو الشهري يساوي الأصل وما يجد من

الأرباح السابقة. ومعلوم أن النسبة تبقى كما هي مهما تقادمت السنون. هذا على إفتراض تساوي نسبة الربح السنوي أو الشهري في الألف وفي المائة. ولكن يجب أن يراعى أن الأموال الطائلة أقدر على رفع نسبة الربح من الأموال القليلة وعليه فإن الفرق سيتعاظم كلما كرت الأعوام بين صاحب الألف وصاحب المائة كما سيتعاظم هذا الفرق بين من قطعوا ألف شوط في الحضارة وبين من قطعوا مائة فقط. وإذن فالفجوة بين الفريقين صائرة إلى الإتساع والتزايد.

هذا معنى قد أشار إليه بعض كتاب الغرب مستحسنين له واجدين فيه الضمان الكافي لأن تظل أممهم وشعوبهم سيدة حاكمة، وتظل هذه الشعوب والأجناس التي نحن أحدها محكومة مسودة مهما تقدمت ووثبت وتعلمت وأخذت كل ما يستطاع أخذه من العلوم والصناعات التي بها ساد الغرب وحكم وتحكم. ولكن يجب أن يقال هنا: إن هذه النتيجة قد تكون صحيحة وصادقة لو كان رقي الأمم ونضجها يقاس بما يظهر منها وبما تعمله فقط دون ما يكمن فيها وما يمكن أن تعمله وأن تظهره. غير أن الذهاب إلى هذا وإلتزامه يشبه أن نحكم على إنسان قد تعلم بأنه أرقى وأنضج طبيعة وأعظم إستعداداً من إنسان آخر لم يتعلم، لأننا شاهدنا المتعلم يفعل ويعلم ويحسن ما لا يفعله ولا يحسنه ذلك الإنسان الآخر الذي لم يتعلم. مع أننا نعلم جميعاً بأن ذلك الذي لم يتعلم قد يكون في إستعداده الطبيعي أعظم وأذكى من ذلك الذي تعلم وأنه لو تعلم لفاقه وسبقه في كل شيء.

ويشبه أن نرى إنساناً غامر وقام بأعمال معينة تجارية أو صناعية أو زراعية أو غيرها فنجح نجاحاً رائعاً فنسرع إلى الحكم بأنه أرقى وأعظم في إستعداده من إنسان آخر معين لم يغامر ولم يقم بعمل من الأعمال فلم يصب نجاحاً ولا شيئاً مما أصاب ذلك المغامر المخاطر، ونسرع إلى الحكم بأن ذلك الذي ترك مواهبه راكدة كامنة لا يمكن في يوم من الأيام – مهما حاول وناضل – أن يكون مثل ذلك الناجح ولا أعظم منه... أو يشبه أيضاً أن نرى جوادين، أحدهما في الرباط والآخر في السباق، فنزعم أن الذي في السباق أصل من ذلك الذي في الرباط، وأنهما لا يمكن أن يستويا ولا أن يفوق ويسبق الذي في الرباط الذي في السباق، بحجة أننا شاهدنا الذي في السباق يسابق فيسبق ويستعين بأصالته فتنجده، وأننا شاهدنا الآخر في رباطه محبوساً محكوماً... أو يشبه أن تدعي

http://www.ithar.com

بأن أرضاً خير من أرض وأخصب، ولا برهان لدعوانا سوى أن إحدى الأرضين زرعت فأنبتت وأخصبت، وأن الأخرى لم تزرع فلم تنبت ولم تخصب. مع أن الناس يعلمون جميعاً بأن التي لم تزرع قد تكون في طبيعتها وحقيقتها أعظم وأقوى وأخصب من الأخرى... أو يشبه أن نحكم بأن بلداً من البلدان أغزر نفطاً – مثلاً – من بلاد العرب، وحجتنا في هذا أن البلد الذي حكمنا بأنه أغنى بالنفط من بلاد العرب قد رزق شركة قوية أو حكومة غنية فقامت بإخراج نفطه والإنتفاع به، وأن بلاد العرب ترك نفطها في جوفها حبيساً سجيناً... إلى غير ذلك من الدعاوي السطحية الباطلة.

إننا معشر المسلمين – أو معشر الشرقيين إذا استثنينا أمة واحدة – متأخرون عن الغرب في كل ما يهب السيادة والقوة، وكذلك بلادنا متأخرة في الظاهر عن بلاد الغرب: فهي لا تغل لا زراعة ولا معادن ولا مناجم مثل ما تغل بلاد الغرب. فهم – أرضاً وأنفساً – أرقى وأعظم إنتاجاً منا أرضاً وأنفساً أيضاً. فأرضهم تخرج أكثر مما تخرج أرضنا إجمالاً، وناسهم ينتجون أكثر مما ننتج نحن أفكاراً وعلوماً ومعارف وأعمالاً. ولا أحد يقدر أن يرجع السبب في تأخر إنتاج أرضنا عن إنتاج أرضهم إلى أن أرضهم أغنى وأوفر طبيعة وخصباً من أرضنا. بل كذلك بحارهم تعطي لحوماً وأشياء أخرى أكثر مما تعطي بحارنا. وليس هذا بلا شك عائداً إلى إختصاص بحارهم بالثراء دون بحارنا. وكذلك القول في عجزنا عن أن نفعل مثل أفعالهم وأن نعلم كعلومهم وأن نصنع ما يساوي أو ما يفوق صناعاتهم. فهو عجز غير راجع إلى الطبيعة والإستعداد، كما أن عجز أراضينا وبحارنا عن أراضيهم وبحارهم غير راجع إلى الطبيعة والإستعداد. بل المسألة تتلخص في أنهم هم قد أحسنوا إستغلال أرضهم ونفوسهم وأخرجوا ما في الإمكان إلى الواقع وما في الطاقة إلى القوة، وأما نحن فقد تركنا الممكن في إمكانه والكامن في كمونه والطبيعة في ركودها وسكونها، وتخلينا عن الإظهار والإبراز لأسباب عارضة إذا زالت – وستزول – زال هذا الركود العام وتماست الطبيعة وتحاكت فأخرجت ما في الطاقة وصيّرته قوة...

والنفوس كما قلنا كنوز مدفونة كما دفنت جميع الكنوز، تحتاج إلى الإخراج والإستثمار وإلا بقيت في مدافنها كأنها غير موجودة كما يبقي الأموات في

أجداثهم حتى يؤذن لهم بالبعث والخروج.

لماذا لا يصير الحيوان مثل الإنسان في فهمه وعلمه وإدراكه إذا ما علم كما يعلم الإنسان؟ ولماذا تقف معارفه عند حد معلوم لا تجوزه بحال من الأحوال؟ ولماذا لا تقف معارف الإنسان عند الحد الذي تقف عنده معارف الحيوان؟ إن السبب في ذلك هو الإختلاف بين الحيوان والإنسان في الطبيعة والإستعداد. فطبيعة الإنسان تبقى هي طبيعة الإنسان وفوق طبيعة الحيوان وإن ترك بدون تعليم، وطبيعة الحيوان تبقى هي طبيعة الحيوان ودون طبيعة الإنسان وإن علم وأريد منه أن يبلغ أقصى نهاية النضج والكمال العلمي... فكل شيء إذن تؤهله طبيعته وإستعداده. فالإنسانية لها مستوى معلوم مقدور لا تهبط تحته ولا ترتفع فوقه قبل الأوان المحدود. وهذا المستوى يرتفع ويتزايد شيئاً فشيئاً على مر الزمن ويتكون ويستوي وينضج كذلك رويداً رويداً بتفاعل مهيأ كما تتفاعل وتتكون المعادن والأحجار الكريمة والخسيسة والعناصر كلها في مواضعها، بل كما تتفاعل وتتكون الطبيعة كلها. ولا شيء يمنع هذا التفاعل والتكون: لا يمنعه أنه لا ينتفع به أو أنه يجهل أو ينكر أو أنه في أماكنه المجهولة... فإستغلال الشيء والإنتفاع به شيء، وتكونه وتفاعله وسيره في طريقه المرسومة وعلى سنته شيء آخر... فمواهب الإنسان وطبيعته المقدورة الموزونة سائرة في سبيلها وسبيل تحقيق غايتها ونهايتها وتكاملها، سواء استغلت أم لم تستغل، وسواء أبرزت أفعالها أم لم تبرز. وهذا لأن مواهب الإنسان العلمية والعقلية راجعة إلى استواء وتكافؤ وتكامل في محل هذه المواهب وفي موضعها أي إلى تكوين المخ وتكوين ما به الإدراك والفهم تكويناً يهيئه ويؤهله لأن يبدي من المعارف والقوى العلمية والعقلية ما يقضي بالحكم له بالنضج والكمال والتكافؤ. ولن يقف في طريق هذا المحل – أي محل المواهب – إهمال الإنتفاع بها، ولن يعوقها عن نموها وأخذها في سيرها الجهل بها أو الجهل بإستغلالها... وهذه ليست فروضاً نظرية بل هي حقائق واقعية يشهد لها جملة تاريخ الإنسان وجملة تدرجه في مدارج الإستواء والنضج. فإننا لو انتزعنا طفلاً من بيت عريق غريق في الأمية والجهالة المتوارثة القديمة، بحيث لا نجد في آبائه وأجداده من استطاع أن يخرج من نطاق الأمية ثم وضعناه في معهد علمي فيه أطفال أشتات من بني جنسه، منهم من كان آباؤه وأجداده وأسلافه يتوارثون العلم حتى عدوا سلسلة من المتعلمين لا يوجد بين

http://www.ithar.com

آحادها جاهل لكان من الواقع المشاهد الكثير أن يتفوق ذلك الطفل على من في المعهد جميعاً ولكان من الممكن الواقع المشاهد أن يتفوق على أطفال قد توارثوا العلم والتعلم آباءً وأجداداً... ومعنى هذا أننا نستطيع أن نخرج المواهب الكامنة من ذلك البيت العريق الغريق في الأمية بتعليم أحد أطفاله وبتعريض مواهبه للخروج وللإشتعال مرة واحدة من حيث الظاهر وحيث الإبراز. أما من حيث الحقيقة والواقع فإن مواهبه كانت تنمو وتتكامل وإن كانت لم تجد ما يخرجها ويوقدها ويشعل مصباحها... وهذا الحكم يصدق في الأمم كما صدق ويصدق في الآحاد. فإن التاريخ القديم والحديث قد عرف أمماً أخرجت مواهبها من الكمون والإمكان بسرعة محيرة. وأحسن مثل يذكر لهذا الأمة العربية في التاريخ الأوسط، والأمة اليابانية في التاريخ الحديث. وهذا يصدق عكساً أيضاً، أي إن مواهب الأمم البارزة قد تختفي وتلجأ إلى الكمون فجأة ولكن بأسباب ولأسباب. وقد يكون هذا الإختفاء واللجوء بطيئاً حتى يبدو للنظر الأول أن هذه الأمم التي انطفأت نار مواهبها فسكنت وركدت أقل جداً من أمم برزت فجأة في الميدان وظهرت مواهبها أعمالاً وحقائق مشهودة تملأ الحياة حياة وقوة وضجيجاً... ومن هذه الأمم التي أصيبت مواهبها وألزمت بالإنكماش والكمون الإغريق والرومان والعرب. ويخشى – على إحتمال بعيد جداً – أن تلحق بهم أمم من أمم هذا العصر الفتية. غير أن هذا الإحتمال بعيد جداً لأن الأمم أو الأمة إذا بلغت شأواً معيناً من السمو والرفعة فقد يكون من غير الممكن المحتمل النزول عنه حتى ولو أرادت هي بل ولو أراد العالم كله لها ذلك. إذ يكون مثلها في رفعتها وتبوئها مكانها الرفيع كمثل كوكب أفلت من منطقة جذب إلى منطقة جذب أخرى حتى أصبح مستحيلاً عليه هو وعلى العالم كله أن ينزل به من تلك المنطقة أو أن يزحزحه عنها. ويجب أن يكون معلوماً أن للمعاني مناطق جذب وقوة جذب كما للمادة وكما للكواكب والشموس. والعزة للأقوى الأغلب في المعاني وفي المادة معاً.

* * *

أما معارف الإنسان اليوم وشهادتها على عظمته وعلى ضخامة ما ينتظره من الآيات العلمية الإنسانية فأمر من الواجب أن يكون فوق كل خلاف وجدال. لقد كادت الطبيعة أن تستسلم بلا قيد ولا شرط لعلم الإنسان وعقله وكادت – أو قد فعلت – أن تضع في يده قيادها يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب.

أي شيء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب؟ لقد هاجم كل شيء في معقله وغزاه في مكمنه بإنتصار مبين ساحق. فلقد هاجم أكبر وأقدم أعداء الإنسانية – بل وغير الإنسانية من الحيوان والنبات – وهو المرض فقهره. لقد عرف أسباب هذا العدو القديم الشنيع الذي لازم الإنسان منذ وجد بل لازم الحياة وعرف وسائل مقاومتها: عرف كيف ينشأ ومم ينشأ، ثم عرف كيف يحارب ويقضي عليه. لقد غزا جيوشه الميكروسكوبية الخفية التي يصح أن يقال إنها لولا الآلات الدقيقة القوية التي هتكتها من عوالم ما وراء المادة وما فوق الطبيعة! فعلم كيف تعيش هذه الجيوش وكيف تتكاثر وتنمو وكيف تموت وتبيد ثم كيف تتقي قبل هجومها وكيف تطرد وتقتل وتؤسر إذا هجمت واحتلت الأجسام! لقد صنع لها الأسلحة الفتاكة والأطعمة السامة المهلكة ووضع لها الأرصاد والآلات الحساسة التي تعرف أين توجد وأين تحل وأين تعسكر! لقد علم من شأن هذا العدو ما يجعلنا نوقن بأنه عن قريب جداً سيخر صريعاً بين يدي هذا الإنسان وأمام علمه وستستسلم له كل جيوشه إستسلام مهزوم مقهور، وسيصنع بهذه الجيوش الطاغية الباغية ما أراد: إن أراد أبقى وإلا أفنى على ألا تضر منه أحداً لما سيوجده من أسلحة المقاومة وأسباب الحماية الثابتة المتقنة.

لقد تلفت هذا المخلوق الضئيل العجيب، مفكراً صادق التفكير، فوجد أنه أسرة واحدة كبيرة كثيرة مفرقة تفصل بينها الأبعاد والمسافات ووجد أن هذه الأسرة تسكن بيتاً واسعاً جداً – هو الأرض – ووجد أن هذه المسافات والأبعاد والسعة والتفريق تفيت عليه أغراضاً جلى، وحاجات لا يستغني عنها. فهب يستنجد فكره: كيف يزيل المسافات والأبعاد، وكيف يجعل الإنسانية كلها حقيقة كأنها أسرة واحدة تقطن بيتاً صغيراً لا أبعاد له ولا مسافات... فماذا يفعل وما عساه يستطيع أن يفعل! إنه أوجد ما جعل الأرض ومن فيها وما فيها كأنها كرة صغيرة في يده يقلبها صباح مساء بين يديه ويعلم ما يحدث فيها بلا عناء ولا خفاء ولا تعب... فطوى الأبعاد والمسافات. وكان له ما أراد. وراح أفراده يتخاطبون في أطراف هذه الأرض كما يتخاطب أفراد البيت الواحد الصغير بل أسرع وأروع! إنه يستطيع أن يبعث برسالة من رسائله الصغيرة أو الكبيرة، العظيمة أو الحقيرة فتطوف حول الأرض في أقل من ثانية! ثم ما ثانية؟ إنه هو

http://www.ithar.com

الذي أوجدها أيضاً وحددها وعرفها.

إن أحقر وأصغر إنسان في أي مكان كان، في مجاهل الصحراء ومضارب البدو، أم في أحضان المدن والمدنية ليضع إصبعاً من أصابعه الضئيلة العليلة على زر كهربائي فيديره فيسمع ما يشاء من لغات ومن أصوات ومن كلام ومما يشاء. ويضع إصبعه أيضاً على زر من هذه الأزرار المسحورة بقوى العلم والسحرية فيقول... ماذا يقول؟ يقول ليكن نور فيكون له ما يشاء.

لقد قضى على الأبعاد المكانية قضاء حاسماً – سماعاً ورؤية وإنتقالاً أيضاً – أي إنه صار يرى ويسمع وينتقل بدون أن يكون للأبعاد سلطان. لقد هزمت الأبعاد المكانية إذن. أما الأبعاد الزمانية فكانت معركتها لا تقل عن معركة الأبعاد المكانية ولا عن غيرها من المعارك العلمية التي اقتحم الإنسان غمارها بعلمه روعة وإنتصاراً! إنه استطاع أن يطير على أجنحة العلم وأن يرجع إلى الوراء الزماني آلاف الملايين من السنين، وأن يوجد نفسه قبل أن يوجد بما يفوت الأعداد أو يكاد... إنه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكونه وتوالده وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد: كيف ولدت مادة الكون ومتى ولدت وكيف ظلت تتفاعل وتتطور، ثم كيف أخذت تتوالد ثم كيف ولدت هذه الشمس وغيرها من الشموس، ثم كيف راحت هذه الشموس نفسها تلد الأتباع والبنين من قبضتها بها وليحفوا من حولها: يدورون ويتحركون ولكن لا يستطيعون الخروج من قبضتها ولا الإنفصال عنها أو الإبتعاد ولا الإستغناء عن سلطان جذبها... فكأنها بينهم أب وقور مبجل بين أبناء كرام بررة يطيفون به ليأتمروا بأمره وليفعلوا ما يحب ويشتهي. وراحت هي تفيض عليهم بأنوارها وحرارتها وقوتها مثل ما يفيض الأب الحكيم الرحيم على بنيه أنوار الهداية وحرارة الإيمان وقوة الرجولة.

انظر! إنه مشهد من مشاهد العلم التي لا يقدر على إبصارها والإستمتاع بها إلا هذا الإنسان. فيا له من مخلوق ما أعظم حظه لو استطاع أن يعلم ذلك أو أن يفيد منه.

ثم راح يحدث كيف راحت هذه الأتباع توجد الأتباع، وكيف راحت الأبناء تصير من الآباء. فقد ولدت السيارات الأقمار كما ولدت الشموس السيارات. فكأن السنة واحدة لا تختلف، في الجماد، كما هي في النبات، كما هي في الحيوان.

ثم رجع يشهد كل العصور التي مرت بهؤلاء الآباء والأبناء والأحفاد. وطفق

يحكي حكاية العليم المستثبت الأدوار المتقلبة التي مرت بها والتطور البديع المنظم الذي ظل يسوقها ويدفعها إلى الكمال. ويحكي كيف أخرجها هذا التطور من الحالة الغازية أو السديمية وما قبلها إن كان لها قبل إلى حالة التكاثف والتكتل، ومن حالة الإضطراب والقلق إلى حالة الإستقرار والهدوء، ومن العصور الجليدية والنارية إلى عصور الإعتدال، ومن حالة التكتل والفوضى الهندسية التي لا تمكن من سكناها ومن الإنتفاع بها إلى حالة التشذب والتهذب والتمهد الذي جعل منها السهول والسهوب والأنهار والجبال والأودية والمرتفعات والمنخفضات وكل ما نشهده اليوم فيروعنا منظراً ومخبراً. وقد وقف وهو آيب من هذه الرحلة العلمية الطويلة البديعة على عصر وجود الحياة في كوكبنا هذا وقفة غير قصيرة. فحضر بشغف وإهتمام متزايدين هذا الفصل الشائق من الرواية – وهو فصل ظهور الحياة، وهي اللغز المعقد الذي لا يزال العلم الدائب واقفاً أمامه حائراً دائباً على محاولة حله. فحضر وجود الإنسان ووجود غيره من أنواع الأحياء. فلزم هذه الموجودات الطريفة – وعلى رأسها الإنسان – فتدرج معه ومعها وهو وهي يحبوان في مدارج الحياة والوجود، فوصف الإنسان ووصف أيضاً غيره منذ وجوده البدائي الشقي إلى وجودنا هذا، المتحضر المهذب السعيد. فكتبه فصلاً من أعجب الفصول، يصف وصفاً يكاد يكون تصويراً لهذا المخلوق وكل ما شهد وهو يتنقل من طور إلى طور ومن حالة إلى حالة، من حالات النعماء والبأساء، حتى صعد هذه القمة الرفيعة من المدنية التي منحت الحياة كل هذه الألوان الزاهية من ألوان السعادة والترف والعيش الرخي... ثم لم يقف بعلمه عند هذا بل ذهب مسرعاً يسابق الوجود فيسبقه وذهب يخبرنا عما بقي من عمر هذا العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود الذي سبق أن ولده وأن شهد نشوءه وتكونه، وعما بقي من عمر هذا الإنسان وغيره من الأحياء، ويخبر عن الأحداث والحوادث التي لا تزال في طريق الوجود والتي لا تزال تترقب لتثب وثبتها.

يا للعجب! إنه قد فرغ من علم الأرض وما فيها وما سيكون فيها ومن دراستها ودراستهم ثم رنا ببصره الحاد الطموح إلى ما هو أسمى وأعلى موضعاً وأوسع وأكبر فخرج من كوكبه هذا الذي لم يشبع رغباته ومطامحه العلمية إلى رحاب الفضاء بآلاته وأرصاده ورياضياته وخياله يجوبه جوباً ويرود

http://www.ithar.com

ما فيه روداً: يعدد ما فيه من عوالم ويصف أوضاعها وهيئاتها ومقاديرها وأبعادها وأعمارها وأنوارها وحرارتها وقوتها وسيرها وسرعة سيرها ودورانها والتناسب القائم بينها، ويميز التابع من المتبوع والطائف من المطوف حوله والوالد من المولود. بل يحللها حتى يعرف ما هي مركبة منه وما هي عناصرها وما مادتها وما غير ذلك. ثم لا يقضي هذا كله وطر شهواته العلمية بل يجمع أمره على ما هو أعظم ويعد العدد ويقوم بالتجارب بعد التجارب ليتصل بهذه السماوات العلويات إما بالرسائل الكلامية اللاسلكية وإما بالإنتقال إليها على متن سفن سهمية تطلقها قوة العلم وتوجهها حيث يريدون... نعم هم لم يصلوا حتى اليوم إلى هذه الغاية ولكن من زعم أنهم لن يصلوا يوماً ما فقد أساء إلى نفسه.

وهكذا لا ينتهون عند حاجة من حاجات النفس يظفرون بها فكأنه لا نهاية لحاجات هذا المخلوق وكأنه لا شيء يرضي طموحه العلمي إرضاء يحط لديه رحاله وكأنه خلق ليمضي بسنة الله حتى يبلغ بها غايتها القصوى وحتى يوجد الكمال المنشود الذي أراده الله الكامل لعالم صنعه بيديه... فمن أراد لهذا الإنسان ألا يستمر في رحلاته الكشفية العلمية فقد أراد بلا ريب بسنة الله ألا تمضي في سبيلها. ومن أراد ذلك فلا شك في أنه عاجز عن بلوغ مراده.

لا أدق كلاماً من الله العلي حينما قال "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم" فالإنسان حقيقة لم يشهد خلق هذه العوالم الكبرى لا السماوية ولا الأرضية ولا خلق فرده الأول لأنه إنما وجد بعد ذلك إذ البيت يوجد قبل السكن فيه. فأنبأ الله بهذه الحقيقة الصحيحة الواضحة. ولكنه لم يقل "ما أعلمتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم" بل اختار نفي الإشهاد على نفي الإعلام وكأنه إنما أشار بهذا الإختيار إلى أن الإنسان بمداركه الفكرية قد يعلم خلق السماوات وخلق الأرض وخلق نفسه بل وخلق كل شيء كما علم بذلك سائر العلوم التي علمها والتي صارت حقائق مشهودة منظورة. أما شهوده أو إشهاده لوجود العوالم التي خلقت قبله فغير ممكن. والشهود والإشهاد غير العلم والإعلام. فالإشهاد هنا يراد به إشهاد الحضور. ولو أن الله قال ما أعلمتهم خلق السماوات والأرض لنهض أقوام من هنا وهناك ينازعون في معارف الإنسان وينكرونها عليه ويدّعون أن القرآن قد أنكرها. فالشهود قد نفي

بهذه الآية... وأما العلم فقد أثبت بقوله تعالى "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" فالرؤية هنا رؤية العلم أو الرؤية البصرية بواسطة العلم وليس المراد رؤية البصر العادية للأشياء العادية لأنهم لم يفقدوا هذه الرؤية حتى يقال: إن الله سيريهم إياها. وآية الله في الآفاق التي أخبر القرآن أنهم سيرونها هي هذه الكشوف والمخترعات أو الآيات الكونية التي يراها الإنسان بوسائله العلمية والتي لولا هذه الوسائل لما استطاع رؤيتها. فالجديد هو المرئي أو الرؤية هي الجديدة لأمور قديمة أو هما معاً جديدان: المرئيات والرؤيات. ولا بد من القول بأن الآية تشير أو أن فيها إشارة إلى العلوم الحديثة وإلى آياتها وإلا لما كان لها معنى مفهوم بيسر.

وأما الآيات في الأنفس فهي الحقائق النفسية التي اكتشفها العلم، وهي أيضاً الحقائق التكوينية والتشريحية والمبتكرات العلمية التي تفجرت عنها النفس البشرية وكل ما يتصل بالحياة الإنسانية مما كشفه العلم وأعان عليه ومما لم يعلم إلا أخيراً.

والآية دالة على أن معارف الإنسان ومرائيه ورؤيته للأشياء متجددة متطورة كما يقرر العلم، وعلى أن الإنسان يسير دائماً إلى الأمام ولا يرجع إلى الوراء. لأنه إذ رأى الآيات التي لم يكن رآها من قبل فلا بد أن يكون ذلك راجعاً إلى قواه العقلية المبتكرة التي أوجدت ما لم يكن موجوداً وعلمت ما لم يكن معلوماً – أي التي جددت في مخترعاتها وأحدثت في موجداتها، أو راجعاً إلى مقدرته الذهنية التي جددت في خيالاتها وإدراكاتها... والتجديد في العلم أو في المعلومات إنما ينشأ عن التطور. ولو كان الإنسان لازماً حالة واحدة من الناحية العقلية والخيالية – أو لو كان يرجع القهقرى – لما حصل جديد لا في علمه ولا في معلوماته بل ولا في خيالاته.

* * *

وصل الإنسان وقت نزول القرآن إلى طور معين من التدرج نحو الحياة ونحو الرشد العقلي. وكان هذا الطور لا يعدو النظرة السطحية والإلمام بظواهر الأشياء دون النفوذ إلى بواطنها. فكان يرى رؤية قد يضبطها الإستقراء بعض الضبط، وقد تفلت من كل ضبط وهو الأكثر الأغلب، فكانت أحكامه على الأمور، وكانت علومه مبنية كلها على هذا الإلمام الظاهري الصادر عن الرؤية الناقصة، وكانت

http://www.ithar.com

هذه المرحلة من وجود الإنسان بمثابة النهاية أو القرب من النهاية لطور لا يبعد جداً عن الطور الحيواني الذي كانت وسائل إدراكه تنحصر في الحواس الغليظة المجردة مع شيء غير كثير من التفكير الصادق والخيال الذي له بعض القيمة... فأنزل الله في كتابه متحدثاً عن هذا الطور قوله تعالى "يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا" فعلومهم كلها كانت ظاهرية: يرون الظواهر الطبيعية والفلكية والنفسية والإجتماعية وسواها ولكن لا يدرون لماذا هي ولا ما هي! ولا يدرون ما الأسباب وما أسباب الأسباب: يرون الشمس والقمر وغيرهما معلقة في الفضاء متحركة ذاهبة آبية دائرة سائرة بنظام ومواعيد لا تختلف ولا تتخلف. ويرونها تبعث بالحرارة والأشعة ولكن لا يدرون لماذا ولا كيف هذا! بل لعلهم ما كانوا يفكرون في هذه الظواهر والمشاهدات! لماذا لا تقع علينا وعلى الأرض! ما الذي يمسكها ويمنعها من الوقوع! ما الذي يديرها ويحركها ويضبط مواعيد غيابها وطلوعها! ما الذي يمدها بهذه الأنوار والحرارة التي لا تنفذ! كل هذا لا أسئلة له عند هؤلاء وإن سألوا فلا أجوبة صحيحة. وكل ما يمكن أن يقولوا في هذا أو كل ما يمكن أن يفهموا: أن الإله – أو الآلهة – هي التي تفعل ذلك أو أنها – أي الشموس والكواكب – هي التي تفعله بنفسها لأنها آلهة أو لأنها كائنات حية متحركة إما إله وإما حي عاقل. فكانت الكواكب المتحركة الطالعة الغائبة على حسب ما يرى آلهة في أزمان عند أقوام، وأحياء في أزمان أخرى عند أقوام آخرين... والطفل كما قلنا غير مرة يعطينا أبداً صورة كاملة لأولئك الأسلاف الماضين. والأطفال حتى اليوم إذا رأوا شيئاً يتحرك ويسير حسبوه حياً وحسبوا حركته وسيره بإرادته وقصده مثل ما يصنعون هم. ولا تزال بقايا هذه الإنسانية الظاهرية السطحية موجودة.

وكانت تلك الإنسانية منذ وجدت ترى التفاحة تسقط على الأرض وترى كل ما رأى مكتشف قانون الجاذبية ولكنها لم تستطع أن تفطن إلى ما فطن إليه نيوتن في هذه المسألة. وكانت ترى كل ما رأى مكتشفو قوة البخار والكهرباء وجميع المكتشفات والمخترعات التي قلبت حياة الإنسان. غير أنها كانت عاجزة عن أن ترى غير الظواهر وغير ما يرى الأطفال من مظاهر الأشياء... وهكذا كانوا أمام جميع مظاهر الكون.

وكانوا أيضاً يعلمون فتك الأمراض بالأبدان ويعلمون أعراضها ومظاهرها

ويعلمون أنها تورد موارد العطب ويعلمون شيئاً كثيراً من أنواعها على حسب إختلاف أعراضها ولكنهم كانوا جميعاً جاهلين بأسبابها جاهلين بما وراء الأعراض... فلا يدرون من عوالم الميكروبات شيئاً فهم لذلك لا يدرون من وسائل مقاومتها شيئاً أيضاً فكانت هذه الجيوش الخفية القوية تغزوهم فيبصرون وقعاتها وفعلاتها لأنها ظاهرة ولا يبصرونها هي لأنها من عالم الحقائق المستورة خلف الظاهر... فكانت دائماً منتصرة عليهم وكانوا أبداً مهزومين أمامها بدون قتال.

وكانوا أيضاً يرون كل الظواهر التي تؤيد قانون الوراثة وتشرحه والتي تدل على ما كان عليه الإنسان الأول من أخلاق وطباع ووحشية، والتي تعطي مباحث علم النفس ما شاء من مواد لبنائه وتثبيته ووضع حدوده... غير أنهم لبثوا أمام هذه الحقائق والظواهر شاخصين بأبصارهم كما يشخص الأطفال إلى القمر: يرونه كل ليلة يجيء ويذهب ويرونه يصغر ويكبر ويحيا ويموت ويغمرهم بضيائه الباهر وهم في بيوتهم ومخادعهم ثم لم يفهموا من هذا شيئاً سوى هذه المرائي... إنهم رأوا كما رأى المتخصص اليوم بدراسة علم النفس أن الأطفال يولدون وهم يحملون معهم شر الأخلاق وأظلم الطباع وأنهم لو تركوا لسجاياهم لما تورعوا عن إثم ولما أنفوا من ظلم ولما فعلوا شيئاً حسناً من أجل أنه حسن أو لأن فيهم ما يحفزهم على فعل الحسن... ورأوا ما يجب أن يعلموا منه أن الحسنات – أو الميل لفعل الحسنات والخير – لم يولد مع الأطفال وإنما لقنوه تلقيناً وارتاضوا عليه بحكم التقليد والتربية والمشاهدة والتعليم بعد الولادة... وكان يجب أن يكون لهذا دلالات عديدة عندهم ولكنهم بقوا مع هذا كله يقولون ويعتقدون أن الأطفال – بطبيعتهم – ملائكة وأنهم مجلولون مجبورون على الخير وحب الخير مع أن الواقع أنهم بطبيعتهم شياطين أشرار.

وهذا يدل على أشياء كثيرة لم يفطنوا لواحدة منها، من هذه الدلالات أن الإنسان بطبيعته شرير خبيث ظالم وأن الإنسان الأول كان كذلك في كل عهوده وأن الأطفال يرثون هذا الشر والخبث والظلم من أولئك الآباء الأولين الظالمين الأشرار... أما الخير والإحسان وكل هذه الصفات والألفاظ الجميلة التي يتصف بها الإنسان والتي يدعو إليها ويمتدحها ويأمر بها فهي مكتسبة إكتساباً من الأديان ومن التربية التي كونها الإنسان لنفسه بحكم الضرورة

http://www.ithar.com

والحاجة والأنانية أيضاً- فإن الخير تدفع إليه الأنانية كما سيجيء بيانه في فصل مقبل... وعلى هذا فمن الجهل الفاضح التلفت إلى الوراء بقصد الإقتداء والإحتذاء. وإنما يجب الهرب دائماً من الماضي والتطلع إلى المستقبل الباسم راغبين آملين أن يمحو كل وراثات ذاك الماضي وأن ينزع تأثيرها وسيطرتها على الإنسان المقبل. فالحنين – من أجل هذا – إلى الماضي والتصايح بالدعوة لتقليد الأولين والأخذ عنهم بلاهة.

ومن هذه الدلالات الإيمان بأن الإنسان يتقدم ولا يتأخر وأنه خلق متطوراً من شر إلى خير ومن نقص إلى كمال.

ومن هذه الدلالات أيضاً العلم بأن ترك الأطفال لطبائعهم بدون تعليم ولا تربية إنما هو بمثابة تركهم للوحشية العريقة الغريقة في كل ألوان العدوان وأنهم إنما يبنون بقدر ما يخلصون من تلك الطباع الموروثة العادية، ويهدمون وتهدم أممهم وشعوبهم بمقدار ما يترك لهم ومعهم من هذه المخلفات الموروثات... وعليه فالرجل والمرأة أيضاً اللذان يتركان من غير تعليم وتربية إنما يتركان لهذه الوحشية العاتية فلا أمل فيهما – أي في الرجل والمرأة الموكولين لطبيعتهما من حيث الإنسانية بل هما من أعداء الإنسانية التي بنتها التربية والتعليم والأخلاق المكتسبة.

ويجب التنبيه هنا إلى أن الإسلام قد نبه إلى هذه القضايا كلها تنبيهاً صريحاً فمن نصوصه الصريحة قوله تعالى" والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً "أي لا تعلمون شيئاً من هذه الأصول المعلومة في الأخلاق وفي التربية وفي الأديان وفي التعاليم المختلفة. وهذه الأمور إنما تعلم بالتعليم فمن تركوا بدون تعليم بقوا لا يعلمون منها شيئاً وبقوا أشراراً ظالمين لأنهم لا يعلمون الأصول المنافية للشر والظلم، الناهية عنهما.

فالأطفال – ذكوراً وإناثاً – يكبرون وتكبر معهم هذه الطبائع العدوانية إن لم يعلموا.

ومن هذه النصوص قوله تعالى "وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً" وقوله "قتل الإنسان ما أكفره" وقوله "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" وقوله "وأحضرت الأنفس الشح." والآيات في هذا كثيرة معلومة. وفي الحديث الصحيح المشهور (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)

وقد أكثر شراح الحديث من الكلام على هذا الحديث كدأبهم في كل نص يقع بين أيديهم. ولا التفات إلى ما قالوه فيه لأنه غير قائم على أصل من أصول العلم المقررة... والمعنى الذي يجب أن يفهم: هو أنهم يولدون على الفطرة الأولى. والفطرة الأولى معروفة وهي الجهل بكل التعاليم الموجودة اليوم عند الإنسان سواء أكانت تعاليم دينية أم تعاليم أخرى، فهم لا يعلمون شيئاً من هذه التعاليم بسجاياهم وطباعهم لأنها تعاليم إكتساب وتلقين، وإنما يعلمونها إذ لقنوها وعلموها. وكل طفل وما يلقن ويعلم – أي إنه يتجه على حسب التوجيه الذي يصادفه وعلى حسب ما يريده موجهه. فإن كان معلمه وموجهه ومربيه نصرانياً جاء نصرانياً، وإن كان يهودياً جاء يهودياً، وإن مجوسياً فكذلك، وإن كان مسلماً فلا بد من أن يكون مسلماً كما يشاهد في كل زمان ومكان.

ومن المعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ولأصحابها طريقة في تعليم الأخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه. ولو تركوا لم يعلموا شيئاً لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا إسلامية لبقوا على فطرتهم أي مجردين من كل دين. وفطرتهم هي العدوان المطلق الذي لا يعرف القيد ولا الضبط. والفطرة حينما تطلق إطلاقاً ليست ممدوحة وليست خيراً. وإذا قيل: الأمم الفطرية كان يعني بذلك تلك التي تركت بعيدة عن التعليم والتهذيب فهي جاهلة مجرمة. والفطرة مأخوذة من الفطر وهي في أحد معانيها الخلق. فالرجل الفطري هو الذي ترك لخلقته الأولى التي لا أثر للعلم والتعليم فيها وهذا لا خير فيه.

والإسلام لا يقبل شهادة الأطفال. ونحن نفهم أنه إنما رد شهاداتهم لما جبلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء. أما قول بعض الفقهاء – أو قولهم كلهم – إنه رد شهادتهم لأمور أخرى ذكروها فهو من جملة أقوالهم الكثيرة التي تموج بها الكتب موجاً من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية.

وهنا يجب أن يفطن القارىء إلى أنه لا تناقض بين دعوتنا إلى الإيمان بالإنسان ومواهبه العديدة، وبين قولنا هذا في جبله على الظلم والعدوان. فإننا نريد بالقوانين معاً: أن الإنسان خلق ناقصاً شريراً ظالماً جاهلاً، ولكن خلق إلى جانب ذلك معداً للتطور وللسير بالتدريج نحو الكمال ونحو البلوغ العقلي والخلقي. فهو شر بالنسبة للماضي خير بالنسبة للآتي. وهذا يحملنا على أن

http://www.ithar.com

نعمل لتدمير الماضي الفاسد وبناء المستقبل الصالح.

ولا يظن أحد من القراء أنه يدخل في هذا الأصل الخبيث الشرير والظالم آدم أو غيره من الأنبياء الذين جاؤوا برسالة الإصلاح العامة، وجاؤوا لنقل البشر من ماضيهم الخبيث إلى رسالاتهم الطيبة الهادية التي تعمل على إبلاغهم طور الفضيلة المبتغاة... وإنما نعني بذلك تلك الإنسانية المتروكة لجهالاتها ولطباعها غير الطيبة. وكلامنا لا يحتاج إلى مثل هذا التنبيه. ولكن التجربة دلتنا على أنه يجب الحساب لما هو أبعد من هذا عن القصد. والإنسان – كما هو موضوع كلامنا – شرير بحسب الأصل والطباع الأولى. فإحتياجنا إذن لهذا التنبيه راجع إلى هذا الأصل وإلى محاولة إتقائه.

هذه كلمة استطرادية فلنرجع إلى أصل البحث الذي أردنا به التدليل على أن الإنسان كان وقت نزول القرآن لم يعد كثيراً طور رؤية الظواهر دون معرفة البواطن فنقول:

وكانت الإنسانية أيضاً إذ ذاك تعلم وترى أن أمماً تسقط وأمماً أخرى تقوم، ولكنها ما كانت تعرف لماذا يسقط من يسقط ولا لماذا ينهض من ينهض ويسود من يسود. وكل ما كان يمكن أن تعلل به هذه الظواهر هو زعمها أن الآلهة – أو الإله – قد غضب على الأمم الساقطة الهاوية فخفر لها فأسقطها، ورضي – أو رضيت أي الآلهة – على الأمم الأخرى القائمة السائدة فأقامها وسودها. أما الأسباب الإجتماعية أو النفسية أو غيرها من الأسباب التي صارت اليوم معلومة مدروسة في قيام الأمم وسقوطها فكانت عازبة عنهم وكانوا عنها بعيدين، لأن تطورهم ورشدهم كان حينذاك لم يبلغ هذا المدى.

هكذا كانت الإنسانية يوم نزل القرآن: ترى ولا تعلم – أو تنظر ولا تبصر كما جاء في الكتاب الكريم" وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون. "وما أجمل هذا النفي والإثبات مجتمعين، وما أروعهما متواردين. وقد جاءت إشارة الكتاب الكريم على هذا المعنى في آية أخرى أوضح وأجلى وهي قوله تعالى "فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور." وقد كان القرآن ناعياً على الإنسان نقصه وحاله حينما قال: "يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا" لأن الله يريد بهذا المخلوق المختار الكمال وبلوغ الرشد. وهذا لا يكون إلا بعلم البواطن والنفوذ إلى إدراك الحقائق. أما الوقوف عند الظواهر فهو شأن الطفولة.

والطفولة بلا ريب ليست هي القصد من الوجود وليست هي غايته وإنما هي طريقه وبدايته.

وجاء في الكتاب في سورة أخرى: "وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون" ولا يمر بالآيات مع الإعراض عنها إلا من لا يستطيعوا تجاوز الطور النظري البصري المجرد، لأن الحاسة العقلية عندهم التي تنفذ في الأشياء متجاوزة مجرد النظر ضعيفة أو مفقودة أو ساكنة سكوناً يمنعها تأدية وظيفتها. ويشترك في هذا النظر الظاهري ثلاثة أصناف على ثلاث درجات مرتبة: الحيوان ثم الأطفال ثم الأمم البدائية أو الأمم التي أصيب عقلها العام بجمود يشبه الموت.

كان هذا الطور الذي بلغته الإنسانية يوم نزول القرآن. وقد عمل الإسلام أعمالاً باهرة لا تكفر لنقل الإنسانية من طورها هذا إلى ما هو أكمل وأقصر. فكان له من التأثير في هذا النضج البشري الذي نشاهده اليوم ما هو معروف. فقد خطت الإنسانية بعد ذلك الطور الذي نعاه القرآن عليها خطوات فاقت في سرعتها وقوتها كل حساب وظن... فالإنسان اليوم قد خلف وراءه عصر الظواهر، وأصبح لا يقنعه ولا يشبع نهمه إلا أن يعلم كل شيء علم ظاهر وباطن. إنه لم يكتف بأن يعلمك كل نواميس هذه الطبيعة بل ذهب يقسمها إلى خلايا وإلى عناصر وإلى ذرات، وذهب يعلم خصائص كل ذلك بل ذهب يتحكم في هذه الخلايا والعناصر والذرات. إنه لم يرض بأن تقدم إليه مائدة عليها ألوان الطعام الشهي الواهب للجسم ما يحتاج إليه، بل رأى أنه لا بد أن يعلم العناصر التي يتألف منها هذا الطعام ويعلم نسبها ومقاديرها. ثم راح يؤلف من هذه العناصر أطعمة صناعية تفوق في جودتها وحسنها وفائدتها ومذاقها الأطعمة الطبيعية... إنه قد حصر كل هذه الموجودات أمامه في عناصر عينها وعددها فجاءت حوالي إثنين وتسعين عنصراً، فكان هذا كالإنتصار في معركة فاصلة، ترتب عليه كل ما يترتب على الإنتصار في المعارك الفاصلة. وقد طفق من أجل ذلك يساوي الطبيعة ويساميها في كل أفعالها وعجائبها. وصار من المألوف المعروف أن يقال: هذا طبيعي وهذا صناعي، أي طبيعي وإنساني. وأصبح البترول الصناعي والمطاط الصناعي والخشب الصناعي والصوف الصناعي واللؤلؤ الصناعي وكل شيء صناعي لا يقل في منظره ومخبره عن أخيه الطبيعي... وإننا لنخشى

http://www.ithar.com

أو نرجو – وقد تحقق الأيام أي الأمرين أحسن – أن يأتي الزمن الذي يقال فيه: الإنسان الصناعي والحيوان الصناعي... وهذا ما لا يزال العلم أمامه حيران عاجزاً. ولكنه لم يعترف بالعجز ولم يفكر في الإستسلام للإخفاق، بل ما فتىء يهاجم ويناضل بعزم من يعلم أنه منتصر لا محالة. ومحاولة صنع المادة الحية أو إيجاد الحياة في المادة لا تزال من المعارك الملتحمة التي لم يكتب للعلم حتى اليوم الظفر بها. إذ يكاد يكون سر الحياة من أسرار الطبيعة التي لم يرفع عنها العلم الأستار. ولكن الإنسان يقول: إنه قد انتصر في نضال هو أشد من هذا النضال الدائر الحامي من أجل الإنتصار على سر الحياة ولغزها. وعلينا نحن أن ننتظر وأن نلزم الحياد حتى نرى لمن يكتب النصر.

لقد لون الإنسان اليوم كل وجوه الحياة بألوان مشرقة ولامعة بعد أن كانت مغبرة مكفهرة: لقد حسن كل شيء فيها بعد أن وهبه النظام وجعل له الأصول والقوانين. كان كل شيء مضطرباً، وكان كل شيء مشوشاً لا نظام له ولا قاعدة، فأصبح اليوم يرى عالماً كله النظام وكله الترتيب في كل ناحية من نواحيه ومعنى من معانيه.

ولنذكر هنا مثلاً واحداً لنعرف به قيمة ما بلغه الإنسان وقيمة ما أعطى الحياة من جمال وروعة وراحة ونظام: كان الإنسان الأول يراع من رؤية البحار ويرهبها أشد الرهبة، وكان لا يخطر على باله أن يجيء يوم يخاطر فيه بحياته فيركب متن هذا العدو الجياش الصاخب. ولقد لبث على هذا أحقاباً وأحقاباً. ثم بعد ما لا يعرف الآن على وجه التحقيق من الدهور وفق أن يتوصل إلى نقر جذوع النخل والأشجار الأخرى فيطفو بها على سطح الماء مزهواً أو مذعوراً. ولنرسم في أذهاننا صورة لذلك الإنسان وهو على ظهر سفينته تلك وكيف كان منظره ومنظرها... ثم لم يزل يسوقه التطور شيئاً فشيئاً ويدفعه حتى تهيأ له أن يركب هذه المدن الجميلة الطافية اليوم ساخرة من البحر ومن أمواجه ومن صخبه ونصبه، غير منتظرة ريحاً تسوقها أو حظاً يخدمها! ولنفكر في الجهود العقلية والصناعية التي بذلت للإنتقال من ظهور تلك الجذوع إلى هذه السفن التي تزهى بها البحار في هذا العصر.

إن كل ضرب من ضروب الحياة الإنسانية قد أدخل عليه من التجميل والتحسين والتكميل مثل ما أدخل على صناعة السفن وتصميم السفن. إذا

علمنا هذا ثم ألقينا نظرة فاحصة على عالمنا اليوم وعلى ما غمره من صناعة الإنسان وعلم الإنسان ونظم الإنسان أيقنا حينئذ بعظمة هذا المخلوق، وأتينا بالجواب الصحيح الذي يجب أن يجاب به السؤال السابق: (هل الإنسان غير عظيم.)

* * *

إن من السخف المبين أن يظل خطباؤنا وعلماؤنا ووعاظنا وجميع رجال الدين وغير رجال الدين ينشدون الأناشيد ويقذفوننا بالخطب تلو الخطب وبالمقالات إثر المقالات، مؤكدين لنا بأن الإنسان ما خلق ليكون عالماً، ولا ليكون شيئاً كبيراً، ولا ليغالب الطبيعة والحياة، ولا لينازع الله في علمه وقوته وقدرته، ولا ليخرج من طبيعته... وإنما خلق عبداً ضعيفاً جاهلاً ليبقى أبداً ضعيفاً جاهلاً. وإنما خلق من التراب وسيبقى أبداً في التراب! وإنما خلق ليثبت له ويبين أنه لن يستطيع أن يكون عالماً كما يقول أحد الشيوخ الذين أوردنا كلامهم! ...إنه ما خلق ليحل المشكلات ولا ليقضي على الأزمات ولا ليدخل التغيير الكبير على شيء من هذا الوجود الجبار الذي منحه الله نظامه... وإن من السخف المبين أيضاً أن نظل خاضعين لهذه الثقافة الميتة التي حكمت علينا وعلى مواهبنا الإنسانية بالإعدام من غير أن نحاول التجديد فيها ولا الخروج عليها ولا التبديل في نصها أو روحها، حتى لنسمعها كل يوم جمعة – بل كل يوم – تلحن وتعاد فوق منابرنا وفي جمعياتنا وفي كل ما يقال وما يكتب عندنا: نعم إن من السخف كل هذا بينما الآخرون الذين نسميهم أعداءنا جادون ماضون في إستغلال مواهب الإنسان ومواهبهم الإنسانية حتى استطاعوا أن يصنعوا كل هذه الحضارة وكل هذه المدنية وكل هذه الحياة، وحتى استطاعوا أن ينقلوا هذه الحضارة وهذه المدنية وهذه الحياة كل يوم خطوات إلى الأمام، وأن يضيفوا إليها كل حين جديداً. وحتى عجزنا نحن أن نشاركهم أقل مشاركة أو أن يكون لنا في ما فعلوا أضعف أثر. نعم! إن هذا من السخف المبين ومن الغبن الفاحش أيضاً.

إن أقل ما يجب أن نفعله الآن هو أن نشيد ثقافة جديدة كل الجدة منتزعة من روحنا المضغوطة تحت هذه الثقافة الخبيثة القاتلة، وأن نقيم قواعد هذه الثقافة على روح هذه المواهب بالإنسان وبمواهبه التي لا تحصى، ليتسنى لنا بعد هذا

http://www.ithar.com

الإيمان الإتجاه إلى إستغلال هذه المواهب وإلى الإنتفاع بها. ثم أن نعد هؤلاء الذين يدعوننا إلى الكفر بالإنسان مجرمين لا يستحقون منا إلا مثل ما يستحق أصحاب الدعوات والمبادىء الهدامة.

إنه لو اعتقد إنسان إعتقاداً قائماً على الوهم بأنه مقيد بقيود لا يستطيع التغلب عليها ولا الخلاص منها لبقي قاعداً مستسلماً لهذه القيود الوهمية ولما حاول النهوض ولا المسير، ولو اعتقد بأنه مقعد وأنه لا يقدر على القيام لظل قاعداً، ولو وضع في مكان ثم أفهم بأن ذلك المكان مغلق وأنه لا يمكنه الخروج منه بحيلة من الحيل لألزمه ذلك الإغلاق الوهمي مكانه، ولما أمكن أن يلتمس الوسائل للنجاة والإفلات إلا أن يكون لديه منفذ للأمل يتعلق به. وكذلك الجماعات والشعوب التي تعتقد – خطأ – بأن قواها العقلية مقيدة بقيود وهمية أو أنها مقعدة أو أنها موصدة عليها الأبواب تظل خاضعة لهذه الأوهام ما دامت خاضعة للإيمان بها.

وأخيراً لقد زعم هؤلاء الهدامون أن الرسول الكريم قال (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ثم زعموا أن معناه: من عرف نفسه متصفة بأضداد صفات الله، أي بالجهل والغباء والحقارة والضآلة والضعف والإفتقار والفقر والموت وبكل الصفات المرذولة المقوتة فقد عرف ربه بالعلم والقوة والغنى وكل صفات الكمال، أي إن العبد يجب أن يكون على الضد من أوصاف الله، أي على الضد من أوصاف الكمال، أي يجب ألا يكون كاملاً وألا يدعي أنه كامل، ويجب أن يبالغ في إنتقاصه وتحقيره وبالحكم عليه... وهذا من شروحهم وتفاسيرهم المضللة التي ملأوا بها الكتب بل زحموا بها الطريق – وأي طريق؟ إنه طريق العقل وطريق الحياة الصحيحة... والتفسير الصحيح لهذا القول لو كان صحيحاً أن المراد: من عرف نفسه على حقيقتها فعرف مواهبها العديدة الكامنة وخصبها العجيب فاستثمرها عرف ربه معرفة صحيحة، وعرف سننه العامة العادلة، وعرف ما يجب له تعالى وما يجب أن يبرأ منه، وعرف بطلان ما ينسبه إليه الجاهلون الأغبياء الذين لم يعرفوه معرفة صحيحة لأنهم لم يعرفوا أنفسهم هذه المعرفة. وكل الذين ينسبون إلى الله الجهل والعبث والسفه والفوضى في الأحكام وفي الأوامر والنواهي وفي القضاء والقدر، وينسبون إليه الحقد وحب الإنتقام وكل ما لا يجوز – وكل الذين يعبدونه عبادة باطلة سخيفة ويريدون منه شيئاً

سخيفاً، ويسألونه ما لا يمكن أن يكون وما لا يمكن أن يقع – وكل الذين يعبدون سواه ويظنون أن هذه العبادة ترضيه وتقرب لديه – إذ هي عبادة المقربين عنده: كل هؤلاء ما صنعوا هذا إلا لأنهم لم يعرفوا أنفسهم على حقيقتها لأن معرفة الشيء إنما تكون بمعرفة صفاته، ومن جهل صفات شيء فليس عارفاً له، والذي يعرف صفات نفسه لا بد أن يستفيد من هذه المعرفة، وأعظم فوائدها أن يقدر الأمور تقديراً صحيحاً. وإذا قدرها هذا التقدير الصحيح فلا بد أن يكون قد عرف الله معرفة صحيحة بعيدة عن الأباطيل وعن الترهات الإعتقادية التي ينساق إليها الجاهلون. والله يعرف بالعلم لا بالجهل، وعند هؤلاء المخربين أنه إنما يعرف بالجهل! ولهذا فإنهم يقولون من عرف نفسه بالجهل فقد عرف ربه بالعلم. وإذا عرف نفسه بالجهل – وكانت هذه المعرفة صحيحة، ثم كان ذلك سبباً في معرفة الرب كان المعنى والنتيجة أن الله يعرف بالجهل وأن الجهل من أسباب معرفته! ولكن لا يدّعي هذه الدعوى إلا قوم لا نصيب لهم في العقل ولا في الدين.

http://www.ithar.com

العلم حجاب - الجهالة أم الفضائل -

أكثر أهل الجنة البله

هكذا قالوا:

روى جماعة منهم الحاكم وصححه أن الرسول عليه السلام قال (لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة واستعينوا عليهم بالمغزل وسورة النور.)

ورووا أن علي بن أبي طالب مر بامرأة تعلم الكتابة فقال (أفعى تسقي سماً.)

ورووا أن النبي عليه السلام قال (إن البيان والبذاء من النفاق، وإن العي والبذاذة من الإيمان) وأنه قال (إن الله يكره البليغ من الرجال.)

ورووا أنه عليه الصلاة والسلام رأى التوراة مع أحد أصحابه فاستشاط غضباً وقال (أمتهوكون أنتم) الحديث...

ونقلوا روايات كثيرة مشهورة جاء فيها أن عمر بن الخطاب كان يمنع من قراءة كتب الأوائل وقراءة التوراة والإنجيل ويعاقب على ذلك، وأنه كان يقول في كل كتاب يحاولون قراءته: (أيوافق ما فيه القرآن) إن كان يوافقه قال فالقرآن يغنينا ولا معنى حينئذ لقراءته، وإن كان يخالفه قال: لا خير في شيء يخالف القرآن. وهنالك الرواية المشهورة التي ذكرها بعض هؤلاء مستحسناً لها ومفتخراً بها، منهم المقريزي ومن لا يقلون عنه، وهي الرواية التي قيل فيها إن عمر أمر بتحريق مكتبة الإسكندرية قائلاً: إن كان ما في المكتبة موافقاً للقرآن أغنانا القرآن عنها ولا حاجة بنا إليها، وإن كان مخالفاً له فلن نبقى على شيء يخالف القرآن، وإنها أحرقت. وقد طار بهذه الحكاية المختلقة بعض من يحملون على العرب والإسلام فرحاً.

وقد تكلموا كثيراً في تحريم المنطق والفلسفة وألفوا في ذلك كتباً منها كتاب الأسيوطي المشهور (أقوال أهل المشرق في تحريم تعلم المنطق) وقد حكى في هذا الكتاب الإجماع - أو شبه الإجماع - على تحريمه. ومن العبارات المشهورة عندهم في هذا قولهم (من تمنطق فقد تزندق.) وفي الكتب المدروسة في الأزهر: فابن الصلاح والنواوي حرما (أي حرما تعلم المنطق.) وقد شنعوا على الخلفاء العباسيين الذين وجهوا عنايتهم إلى تعريب كتب الأقدمين وعدوا هذه العناية من مثالب بني العباس، لأنهم في زعمهم نقلوا إلى المسلمين علم الكفار، وساعدوا

الزندقة والإلحاد على الإنتشار.

وجاء في كتاب مطبوع حديث التأليف أن أحد العلماء المشهورين جداً قال: "كل ما يسمى علماً مما ليس في الكتاب ولا في السنة ومما ليس من علوم المسلمين فهو لا يخلو من أحد إحتمالين: أحد الإحتمالين أن يكون غير علم وأن تكون تسميته بالعلم من تسمية الجهل بالعلم خطأ، وثانيهما أن يكون علماً حقيقة ولكنه علم ضار غير نافع. فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله."

وجاء في أحد الكتب الدينية المشهورة المحترمة جداً في معرض تقسيم الأفكار إلى جيدة وإلى رديئة ما نصه:" منها – أي من الأفكار الرديئة الضارة – الأفكار في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع بل تضر كالفكر في الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير، والفكر في العلوم التي لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كمالاً ولا شرفاً كالفكر في دقائق المنطق والعلم الرياضي وأكثر علوم الفلسفة التي لو بلغ الإنسان غايتها لم يكمل بذلك ولم يزك نفسه – إلى أن قال – فكل هذه الأفكار مضرتها أرجح من منفعتها. ويكفي في مضرتها شغلها عن الفكر في ما هو أولى وأعود عليها بالنفع عاجلاً وآجلاً."...

وكتب ابن عربي والشعراني وغيرهما ملأى بمذمة التعلم والعلم، ومن الأقوال المشهورة في هذا قولهم: (العلم حجاب.)

ومن البلاء حقاً أنهم لم يقصروا عند إمتداح الجهالة بل قاموا – ببلاهة كثيفة – يمتدحون الجنون والبله والبُله والمجانين، فرووا أنه عليه السلام قال: (أكثر أهل الجنة البله) وأنه قال (المؤمن غر كريم، والمنافق خب لئيم) وأنه قال (إن الله يدخل قوماً الجنة كأن قلوبهم قلوب الطير) أي في السذاجة والسلامة من المكر والخبث، ومن الدهاء والذكاء. وراحوا كالمصروعين ينشدون في إمتداح الجنون والمجانين.

مجانين إلا أن سر جنونهم
عظيم على أبوابه يسجد العقل

وجاء في النهاية لابن الأثير – مفسراً البله الذين هم أكثر أهل الجنة:–

"البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر. دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة." وهكذا قال غير ابن الأثير.

وهم يقصدون أن المؤمنين حقاً الذين يخصون بدخول الجنة هم الذين يكونون بالأوصاف المذكورة من الغباوة بالشؤون الدنيوية وبما يلزم لها. وقال أحدهم في تفسير البله: (الأبله هو الأبله في دنياه، الفقيه في دينه.)

وفي النهاية لابن الأثير أيضاً:

"المؤمن غر كريم، أي ليس بذي نكر فهو ينخدع لإنقياده ولينه وهو ضد الخبث. يريد أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه... ومنه تحديث قول الجنة: يدخلني غرة الناس، أي البله الذين لم يجربوا الأمور فهم قليلو الشر ينقادون. فإن من آثر الخمول وإصلاح نفسه والتزود لمعاده ونبذ أمور الدنيا فليس غراً في ما قصد له ولا مذموماً بنوع من الذم."...

ومما ذهب كالمثل قولهم (العجز عن الإدراك إدراك)، يعنون إمتداح الجهل وأن الجاهلين هم العلماء حقاً لأنهم عرفوا قدرهم وهو الجهل فوقفوا عنده.

وهنالك قسم كبير من الأولياء عند الذين كتبوا في الطبقات يسمون بالمجاذيب أو بالأولياء المجاذيب. وقد أورد الشعراني في كتابه (طبقات الأولياء الكبرى) أسماء طوائف كثيرة من هؤلاء المجذوبين. وهكذا صنع غيره.

* * *

لقد تبين بهذا أن الفساد الفكري عند هؤلاء كان فساداً عاماً وكان فساداً أصيلاً. فهم لم يكتفوا بمدح الفقر والمرض والجوع وكل ألوان الشقاء كما سيأتي، بل امتدحوا كما رأى القارىء الجهل والغباء! ثم لم يكتفوا بهذا أيضاً، بل امتدحوا الجنون وضعف العقل والعجز عن التصرف في الحياة! وهم لم يقصروا عند هجاء الثراء والصحة والعافية بل هبوا – بكل ما أوتوا من بله – يهجون العلم والمتعلمين والعقل والعاقلين! فهم إذن قد قصدوا إلى كل مقومات الإنسانية، وإلى كل عناصر الحضارة والمدنية، محاولين هدمها وتدميرها.

لقد سرت هذه الأفكار والآراء وغيرها في البيئات الإسلامية سرياناً عجيباً، وغزت معقل الإعتقاد ومعقل التوثب الفكري، حتى أضحت روحاً عامة للخاصة والعامة – إذا استثنينا من استثنى الله – مدى ألف سنة تقريباً، وظل المسلمون الذين يعيشون بهذه الروح طوال هذه العصور ينظرون إلى العلوم التي لا تتصل بالعبادة الحرفية الشخصية بعين الجفاء والإشمئزاز بل والبغضاء! ولبثوا ينظرون إلى من يحاولون الإتصال بهذه العلوم ودراستها أو ترجمتها نظراً كله

http://www.ifnar.com

الكره والمقت والإتهام! ولبثوا يعدون من اشتغل بها ملاحدة وزنادقة أو فساقاً إلى عهد قريب جداً، بل لا يزالون كذلك حتى اليوم في بعض البلاد التي لم يغمرها نور العلم والتي لم تستطع الخروج من أكمام الجهل.

فقد عدوا من شغلوا بعلوم الإغريق – سواء أكانت طبيعية أم رياضية أم فلكية أم فلسفية أم طبية – ملاحدة، وألفوا كتباً في ذمهم وإكفارهم وتبيان أضرارهم! وكذلك حسبوا من درس شيئاً من هذه العلوم من المسلمين والعرب. وقد اجتهدوا في تحامي هؤلاء وتحامي كتبهم وتحامي النظر إليها وعملوا على قتل هذه الكتب وعلى دفنها... فأمثال الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان وأبي بكر الرازي والكندي وسواهم – ممن قاموا بتجارب ودراسات لها قيمة صادقة في الكيمياء والطبيعة والرياضة والفلك والطب والفلسفة – محاربون مكروهون متهمون في دينهم وأخلاقهم. وهم لا يذكرون حينما يذكر علماء الإسلام وأعلامهم ورجالهم البارزون. أما كتبهم التي بحثت في هذه العلوم فلا توجد في المكتبات بل ولا يسمع بها ولا تذكر إذا ذكرت كتب المسلمين. ومن المؤسف حقاً أن الذين شهروا هذه الكتب وشهروا مؤلفيها وأخرجوهم من ظلمات القدم والنسيان هم علماء أوروبا أو من أخذوا عن علماء أوروبا. أما المسلمون فقد أجمعوا على رفض هؤلاء ورفض مؤلفاتهم وعلومهم وعلى تجنبها وتجنبهم. ومن أجل هذا لم يوجد بعد هؤلاء من ينهضون بإتمام ما بدأوه أو بتوسيعه أو للسير في الطريق التي اختطوها ونهجوها. بل ما كان مثل هؤلاء العلماء العلميين في هذا التاريخ الطويل المظلم الظالم إلا كومضات لمعت في ليلة حالكة ثم تلاشت وتلاشى مصدرها من غير أن تعود مرة أخرى إلى أن غمرنا بل وغمر العالم نور النهار الذي خرج من جانب آخر.

ومن أجل هذا كانت مقاومتنا للعلوم التي غزت العالم كله مقاومة صادقة طويلة، وكان نفورنا منها نفوراً حقيقياً، وكان إباؤنا إياها إباء مصمماً، وكان إتهامنا لها إتهاماً معززاً بالبغضاء والتشنيع.

لقد قامت أوروبا – قارة الضباب والثلج والظلام – منذ ثلثمائة سنة – بل تزيد – تحاول بكل الوسائل الخروج من ظلامها وجهلها. فما زالت كل هذه القرون تناضل هذين العدوين نضالاً مراً عنيفاً حتى ظفرت هذا الظفر العجيب. وكنا نحن إذ ذاك نأبى أن نبصر أو أن نفكر أو أن نستيقظ بل أو أن نقلد، ونأبى أن

ننظر إلى من حولنا وما حولنا. بل كنا لا نبغي بجهلنا ولا بليلنا بديلاً من العلم أو من النهار والنور. فلقد كنا مأخوذين متأثرين بل مخدرين أو مسحورين بأقوال هؤلاء الشيوخ المدمرين الذين كتبوا لنا وخلفوا وراءهم هذا العداء الكريه المرير للعلوم، ولا سيما علوم الكافرين والآخرين من الأمم الغربية.

وكنا إذا ما طاب لهذه القارة أن تغزوا بلداً من بلادنا وأن تنتقص جانباً من جوانبنا بقوة علومها التي كرهناها وذممناها، فغزت ما شاءت غزوه، وعصبت ما أرادت عصبه بدون عناء أو مقاومة – لأن الجهل لا يقدر على مقاومة العلم – فغرنا أفواهنا بدون أن نتكلم، وشخصنا بأبصارنا ولكن من غير أن نبصر، واستكت آذاننا فلا نسمع. لأن الحجب والموانع كانت تحول بيننا وبين أن ننظر أو نسمع أو نتكلم أو أن نستفيد مما يحيط بنا. كانت حجباً وموانع كثيفة أقامتها ونسجتها هذه التعاليم وهذه الآراء المخربة التي غبرنا نلقنها ونطعم بسمومها القرون بعد القرون.

لقد بقينا نحن وبقوا هم هكذا: يعلمون ونجهل، ويقوون ونضعف، ويأخذون ونعطي، ويزيدون وننقص حتى قامت هذه النتيجة المروعة المخزية، وهي أننا فقدنا نحن كل شيء وأخذوا هم كل شيء. والسبب في هذا كله يتلخص في شيء واحد: هو أننا تعلمنا كيف نبغض العلوم وكيف نأباها وننفر منها، بينما كانوا هم يتعلمون كيف يبغضون الجهل، وكيف ينفرون منه، بل وكيف يقاومونه ويدمرونه ويهزمونه.

ولقد كانت آثار هذه التعاليم التي ورثنا إياها هؤلاء القوم قوية فعالة. فإننا عملاً بهذه الوصايا بقينا محافظين بأمانة على عداوة العلم حتى اللحظات الأخيرة، وظللنا مغمضين أعيننا خيفة أن تبهرنا أضواء العلم في كل بلد من بلادنا وكل ركن من أركاننا. وما قبلنا من فتوح العلم إلا ما يدخله علينا هؤلاء الغزاة الغربيون إضطراراً وإكراهاً. وكنا ننظر أيضاً إلى العلوم أو أطراف العلوم التي تنتقل معهم أو ينقلونها معهم نظرات يشوبها الشك والريب والحذر. وكان بودنا لو أنهم أبيدوا هم وعلومهم وذهبوا إلى غير رجعة. وما زلنا نسمع هذه الأماني والآمال تنشد فوق منابر المساجد ومنصات الخطب والمحاضرات في النوادي والجمعيات. وما زلنا حتى اليوم نسمع من يرفعون عقائرهم جاهدين يدعون على هذه العلوم وعلى أربابها ويسألون لها الدمار والفناء، ويضرعون إلى

http://www.ithar.com

الله طالبين إليه ألا يبقى منهم ولا منها باقية، لأنها في زعم هؤلاء الواعظين الناصحين الباكين أو المتباكين علوم لا تجلب سوى الشر، ولا تحدث سوى الفساد والإلحاد. ولا شك في أن روح هذه الكراهية إنما هي بقية من بقايا هذه التعاليم وأثر من آثارها وصوت من أصواتها.

ومما يدل دلالة قاطعة على مبلغ تأثرنا بأقوال هؤلاء المشايخ في بغضة العلم وذمه أننا أبينا – حتى اليوم – في بلادنا المستقلة التي لم يغزها هؤلاء الأعداء العلميون بجيوشهم ولا بشركاتهم وأموالهم وأعمالهم أن نقبل هذه العلوم أو نفتح لها باباً من أبوابنا أو أن نرضاها مهما بذلت لنا الشروط. ونحن نرى الآن بعض البلاد تأبى إباء تاماً أن تقبل عندها لوناً من ألوان العلم أو مظهراً من مظاهر الحضارة التي صنعها العلم، على زعم أن هذه العلوم هي علوم قوم كافرين لا تليق إلا بالكافرين، أو أنها علوم لا خير ولا فائدة منها، لأنها دنيوية لا تفيد في عبادة الله ولا في طاعته، أو على زعم أنها تدخل معها الفساد والفسوق أو تدخل معها أهلها، أو على زعم أنها علوم مخربة مدمرة... تعددت الأسباب والمنع لا بد منه.

وما استطاعت البلاد الإسلامية الأخرى أن تقبل بعض هذه العلوم أخيراً إلا إكراهاً لأن أهلها أدخلوها معهم كذلك أو لأسباب قاهرة ليس لهم فيها اختيار ولا يد... وظني أن أكثر المسلمين الآن لو رجعوا إلى إختيارهم الخاص في قبول هذه الحضارة وعلومها وفي رفضها لكان الرافضون الآبون هم الأكثرين، والأدلة على ذلك كثيرة مشهودة حسية. وكلنا يعلم أن ملكاً شرقياً مسلماً سلب عرشه وطرد من بلاده لأنه أراد – بعد رحلة في أوروبا – أن يدخل على قومه الحضارة والعلوم الحديثة. وكلنا يعلم أيضاً أن بلداً إسلامياً مستقلاً لا يزال اليوم يعيش على هامش الحياة وعلى الفطرة الأولى...

وقد ظل المصريون المسلمون إلى عهد قريب جداً يرفضون تعلم الحساب – دع غيره من العلوم – متأثرين بهذه الروح المعادية للعلم. وكانت الأعمال الحسابية من أجل هذا موقوفة على الأقباط. حتى إن أصحاب الأموال والأعمال كانوا مضطرين إلى هؤلاء للقيام بأعمال دوائرهم. وكانت أكثر الوظائف – إن لم تكن كلها – التي تحتاج إلى حساب وإلى كتابة مقصورة عليهم خاصة بهم. وإلى اليوم لا يزال شيء كثير من هذا عالقاً بالأذهان.

وقد تجلى أيضاً أثر هذه الروح في لبنان. فإن المسلمين هناك قد بقوا مجانبين للمعاهد الأجنبية الموجودة، ثم ممتنعين عن دخولها. أما غير المسلمين من اللبنانيين فقد أقبلوا على هذه المعاهد بشغف، فأخذوا منها العلم والتربية وحب الحياة. فأصبحوا هم الطليعة في نهضة لبنان العلمية والأدبية، بل في نهضة كل البلاد العربية، فقد تعلم الناس منهم فن الصحافة والأدب والشعر، وأشياء أخرى. نعم من الممكن أن يقال إن التعصب الديني هو الذي حمل المسلمين في لبنان على إجتناب تلك المعاهد. ولكن الصحيح أن التعصب جزء السبب وليس كل السبب، وكذلك كراهة العلم والدعوة إلى كراهته ليست بالسبب كله. بل التعصب وروح العداء للعلم سببان من أسباب وليسا كل الأسباب كما يجب أن يقال.

لماذا هذا كله وما أسبابه وعوامله؟ إن أعظم أسباب هذا وأظهر عوامله هو هذا الميراث الثقيل الوبيل الذي ورثناه عن هؤلاء الشيوخ الذين لم يوفقوا إلى شيء كثير من العقل أو العلم أو النظر السديد أو الإستقراء النافع.

نعم كل ما ذكر صحيح، ولكن لماذا كره هؤلاء العلم ولماذا كتبوا في كراهته وفي مذمته؟ إن لهذا أيضاً أسباباً، منها الظاهرة الجلية ومنها الباطنة الخفية. وإن أظهر وأكبر هذه الأسباب هي سيطرة الفكرة الزهدية القاضية بذم الدنيا ونبذ كل ما يتصل بها وكل ما يعين عليها وما ييسر من أسبابها. فإن الزهد في الدنيا وفي الحياة المترفة المنعمة يفضي إلى الزهد في ما هو من عواملها ومقوياتها.

إن أساس أكثر أخطاء هؤلاء الدعاة هو أنهم اعتقدوا أن العبد لا يكون عبداً لله حقاً مخلصاً له إلا إذا كان ضعيفاً في كل شيء عاجزاً عن كل شيء: ضعيفاً في ماله وفي جسمه وفي صحته وفي علمه بل وفي عقله. فالقوة للعبد في كل شيء مذمومة لأنها عنوان الجبروت، ولأن القوة يجب أن تكون لله وحده. أما العبد فله الضعف، لأن الضعف أدل على العبودية، ولأن الضعيف أقرب إلى الخضوع والإستسلام والإقرار لله بالعبادة. فالمال مذموم، والقوة مذمومة، والصحة مذمومة، والعلم والعقل مذمومان، وكل ما هو من صفات الله مذموم إذا كان صفة للعبد! ومن أجل أن يحققوا هذه العبودية الضعيفة المستسلمة الخاضعة ذموا العلم وذموا الذكاء النادر والعقل الجبار، وذموا الفصاحة والبيان وذموا كل ما يهب صاحبه القوة أو الكمال، وامتدحوا الجهالة والغباء وضعف العقل

http://www.ithar.com

والجنون والعي والفهاهة وكل ما يهب صاحبه ضعف الشخصية وخور الإرادة والعجز عن المقاومة: رأوا بتفكيرهم العاجز أن أعظم فرق بين الخالق والمخلوق هو الضعف والقوة: الضعف في المخلوق والقوة في الخالق. ورأوا أن أحدهما لا يصح أن يتصف بصفة الآخر. فالخالق لا يصح أن يتصف بالضعف والمخلوق لا يصح أن يتصف بالقوة. فكل ما هو ضعف هو كمال في المخلوق، وكل ما هو قوة هو كمال في الخالق. والعلم والذكاء والعقل والبيان والبلاغة من أوصاف الأقوياء القادرين، فإتصاف المخلوق بها عند هؤلاء الأدعياء يخرج به عن طوره وحدوده. أما الجنون والجهل والفهاهة والبله فمن صفات الضعف والضعفاء، فحسن إذن قيامها بالمخلوق مثل ما قالوا في الصحة والمرض والثراء سواء.

وهذه الفكرة الفاسدة إنما إنتزعوها من قياس فاسد أخذوه مما بين أيديهم. وهو أنهم وجدوا أن الإنسان أحياناً كثيرة قد يأنف من قوة عبده وخادمه وممن هو تحته، ومن ذكائهم وعقولهم وعلومهم، ويغار ويحقد ويحسد ويخاف من ذلك. وكذلك كثير من الملوك والأمراء والزعماء والرؤساء قد يغارون من رجالهم الموصوفين بهذه الصفات: فقد يحسدونهم ويحقدون عليهم ويخافونهم ويتمنون لو كانوا متصفين بالصفات الأخرى التي تضمن لهم إنقيادهم وإستسلامهم وضعفهم أمامهم. وقد روى التاريخ العدل أن بعض قادة الأمم – بل كثيراً منهم – كانوا يعملون على أن يحولوا بين شعوبهم وبين العلم ويحرمونه عليهم لأنهم يخافون إمتناعهم عليهم وعسر طاعتهم لهم إذا تعلموا. وحتى في هذا العصر لا يزال يوجد فريق من هؤلاء القادة الذين يخشون العلم. ومما يؤلم أنه يوجد اليوم في إحدى البلاد العزيزة علينا من لا يكافئون المتعلمين إلا بالسجن والعذاب والمطاردة.

وجدوا هذا قد يقع ويصدق في أخلاق الإنسان وفي أعماله الضعيفة، فذهب إلى أوهامهم أن الله أيضاً كذلك، لأن الإنسان دائماً يفهم إلهه فهماً متأثراً بالنظام الإجتماعي الذي أمامه وبالبيئة التي هو فيها. هكذا فهموا أن الله يرضيه ويعجبه من عبيده ألا يكونوا موصوفين بصفات القوة الخاصة به، بل أن يكونوا موصوفين بعكسها أي بالضعف بكل ضروبه.

ثم رأوا أيضاً بإستقرائهم الناقص أن الغباء والعي والفقر العقلي قد يقارنه الصلاح والإنقطاع للعبادة، وأن الذكاء والعقل والنبوغ والعبقرية قد يقارنها

التمرد والشرود والريب، فاستخرجوا هذه النتيجة – وهي أن الأذكياء والعقلاء والعلماء يضلون ويكفرون، وأن البله والأغبياء والجهلاء قوم يتصفون بالصلاح والطاعة والإستقامة وسلامة الطوية والإستسلام لله ولقضائه وقدره ولكل ما يطلب منهم ويحكم به عليهم دون أن ينبض لهم عرق بالإباء والإمتناع... ثم لم يحتاجوا لكثير من التفكير ليحكموا وليروا من أي الفريقين يجب أن يكون المسلم. هذا شيء.

وشيء آخر، وهو أنه لا ريب في أن كثيرين من الذين قالوا ما قالوا في مدح هذه النقائص إنما حملهم على ذلك رغبتهم في أن يضمنوا لأنفسهم السيادة والزعامة ونصف الألوهية أو كلها، لأنهم يدركون بداهة أن الأغبياء والجاهلين والبله هم الذين يسهل عليهم أن يسلموا لهم وأن يكونوا بين أيديهم كالأموات بين أيدي الغاسلين كما يعبرون! أما أهل الذكاء والعقل والعلم فمن العسير إنقيادهم وتسليمهم. فنهضوا يدعون بإخلاص إلى ما يعطيهم السلطة وما يهبهم ملك القلوب، بل وملك الجيوب. ومن هنا قال الصوفية في تعليمهم (العلم حجاب) وقالوا (الجهالة أم الفضائل) وقالوا (اللهم ديناً كدين العجائز) وقالوا (العجز عن الإدراك إدراك.)

ويحكي الشعراني في كثير من كتبه كما يحكي غيره أن مشايخ الطريق وأساطين الصوفية كانوا إذا رأوا من يقرأ ويتعلم زجروه وقالوا له: لا تأخذ علمك عن الأموات ولكن خذه كما نأخذه نحن عن الحي الذي لا يموت! والأموات عندهم هم المخلوقون سواء أماتوا أم كانوا أحياء، لأن الخلق كلهم في لغتهم ميتون وإن كانوا لما يموتوا بعد! وهم يريدون بهذا منع التعليم ومنع الأخذ عن الكتب وعن الأساتذة محافظة على سلطان الجهل الذي يرعى لهم سلطانهم ويحافظ عليه.

وقال ابن عربي في كتابه (الفتوحات المكية) ونقله عنه الشعراني في كتاب (اليواقيت والجواهر): "إن المنكرين لما تعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عباداً تولى تعليمهم في سرائرهم! إذ هو المعلم الحقيقي للوجود كله وعلمه هو العلم الصحيح. وكان أبو زيد البسطامي يقول لعلماء زمانه: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. وكان الشيخ أبو مدين إذا سمع أحداً يقول أخبرني فلان عن فلان يقول:

http://www.ithar.com

لا تطعمونا القديد" كل هذا كلام الشعراني وابن عربي.

وقد أرادا – أعني الشعراني وابن عربي – أن يفرقا بين المجانين والمجاذيب الذين هم في رأيهم أكبر الأولياء فقالا ما نصه: "إن الفرق بينهما أن المجانين سبب جنونهم فساد المزاج عن أمر كوني، وأما المجاذيب فسبب ذهاب عقولهم التجلي الإلهي الذي جاءهم على بغتة فذهب بعقولهم! فعقولهم مخبوءة عند الحق منعمة بشهوده عاكفة في حضرته متنزهة في جماله، فهم أصحاب عقول بلا عقول! والمجاذيب ثلاثة أقسام: الأول من يكون وارده من القوة. وكان أبو عقال المغربي من أهل هذا المقام. الثاني من يمسك عليه عقله في حضرة الله ويبقى عليه عقل حواسه فيأكل ويشرب ويتصرف من غير تدبير ولا روية ويتناول العيش الطبيعي كسائر الحيوانات"... ثم ذكرا القسم الثالث قائلين: "واعلم أن أكبر من جذبه الحق إلى حضرته الرسل"... وأي تضليل أكبر من هذا؟

ومن الأوهام العظيمة أيضاً التي جعلتهم يذمون الإشتغال بالعلوم ولا سيما العلوم التي لا تتصل بعلوم الدين والعبادات إعتقادهم أن الإنسان' إنما خلق لينفق كل جهوده وأعماله وأوقاته في العبادة، أما ما سوى ذلك فالإشتغال بالباطل الذي يؤاخذ الله ويعاقب عليه، وإعتقادهم أن من اشتغل بالعلوم الدنيوية أو التي تفيد في الدنيا فقد اشتغل بخدمة الباطل، والباطل هو الدنيا وكل ما يعمل لها ومن أجلها. ولا أضل عندهم من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل بعبادة الدنيا أو بعبادة نفسه من طريق الدنيا. فمن أعظم الضلال في رأيهم إنفاق شيء ما من القوى والأوقات والأعمال – التي إنما أوجدت لتصرف كلها في خدمة الله – في خدمة الدنيا أو خدمة ما يخدم الدنيا... لهذه الأوهام والأسباب المنكرة أشاع هؤلاء الثناء على الجهالة وعلى الجنون والبله وضعف العقل، وأشاعوا مذمة العلم والذكاء وقوة العقل، حتى صار الناس الذين قضى عليهم قراءة كتبهم والإيمان بها ينظرون إلى العلوم نظراً هو الخشية والحذر، وينظرون إلى الجهل والغباء ونقصان القوى الفكرية نظراً كله الثقة والإطمئنان، حتى أضحى الجنون والبله وأعراضهما عنوان الولاية والإيمان العميق لدى هؤلاء المضللين ولدى المضللين بما كتبوا وقالوا! وحتى رأينا من يسيرون وراء المجانين العراة في الطرقات العامة يبتغون عندهم علم الغيب وهتك أستار المستقبل وقضاء الحاجات بما لهم من قوى الولاية وقوى أهل الله المقربين

المتازين المدللين لديه! وحتى رأينا من يكتبون في أولياء المجانين والمجاذيب وفي كراماتهم وخوارقهم ومن يكذبون الكتب في مناقبهم وفضائلهم! وحتى سمعنا من ينشدون ثملين في الثناء على المجانين:

مجانين إلا أن سر جنونهم
عظيم على أبوابه يسجد العقل

وحتى وجدنا من يجرؤون ممن يعدون محدثين وأئمة دين أن ينسبوا إلى رسول الإنسانية الأكبر عليه السلام أنه قال (أكثر أهل الجنة البله!) وحتى طار على كل لسان مديح الجهل والغباء وهجو العلم والعلماء. وراح الجماهير وغيرهم يقولون في عباراتهم المتوارثة التقليدية: كان الشيطان أعلم العلماء وأعلم الملائكة! !يقصدون بهذا إتمام العلم وأنه من حيث هو علم لا قيمة له وأنه من أسباب الغواية والضلالة كما كان علم الشيطان سبب غوايته وكفره وتمرده! وراحوا يقولون أيضاً: إن العلم غير مقصود ولكن المقصود هو العمل فإذا وجد العمل فلا حاجة إلى العلم! وصار الكلام الموحي بالخشية من العلم وإساءة الظن به فائضاً على كل لسان متمثلاً به في كل مناسبة. وحتى عز الإقبال على العلم وعجز المسلمون في العهود الأخيرة، عهود النهضة العلمية أن يشاركوا أضعف مشاركة في وضع قواعد العلم ووضع قواعد الحضارة، وحتى عجزوا عن أن يضيفوا إلى بنائه لبنة واحدة أو ينقلوه إلى الأمام خطوة واحدة، وحتى صار من العسير جداً تخليصهم من آثار هذه الأفكار الهدامة وخروجهم من نطاق الجهل والغفلة الذي ضربه عليهم بإحكام هؤلاء المشايخ، وحتى ضعف كل الضعف تأثرهم بإختزازات العالم ورجفانه من سرعة السير إلى الأمام بخطواته الثابتة القوية، وحتى فسد نظرهم إلى الأشياء وإلى الحياة فساداً يحتاج إصلاحه إلى جهاد مرير عنيف.

إن طريق العلم ليس بالطريق القصير ولا بالسهل الإجتياز. وإن ما ركب في الإنسان من طباع مختلفة متباينة ليعمل من جهة على جذبه إلى أرض الجهل وحضيض الغباء إن لم توجد من جانب آخر قوى أدبية ومبادىء جليلة إنسانية تعمل بقوة على رفعه إلى أفق العلم وسماء المعرفة. فالإنسان تتنازعه أشياء كثيرة طبيعية ومبادىء أخرى أدبية بينهما إختلاف. فإذا وجدت الطباع المثبطة المعوقة من التعليم والتلقين ما يعينها على تثبيطها وتعويقها انتصرت على المبادىء

http://www.ithar.com

والميول الأخرى الداعية للنهوض والوثوب والإقدام، وإن وجدت هذه الأخيرة وما يعنيها كانت هي المنتصرة الظافرة بالإنسان. والإنسانية بمجموعها ملزمة بأن تعمل على إيجاد المبادىء والتعاليم الأدبية والدينية والشعرية والإجتماعية التي يكون عملها إستنهاض الطبائع والميول المتوثبة، ونصرها على الأخرى المثبطة المعوقة. فإذا أوجدت أمة من الأمم مبادىء وتعاليم فيما بينها تشجع غرائز الركون والإخلاد إلى الجهل وحضيض الغباء وتوحي بالرضا وتعطل ميول النهوض والوثوب كانت القاضية، وكانت تلك الأمة مقضياً عليها بأن تبقى جاهلة غبية. وإن كانت الأخرى كانت الأخرى.

فهؤلاء المشايخ الذين دعوا إلى الجهل، ومدحوا الجنون ونقصان القوى المدركة قد عملوا على إبقاء من ابتلوا بالإيمان بأقوالهم في شرك الجهل وأغلال الغفلة دون أن يستطيعوا النجاة والهرب إلا بقوى أخرى أدبية تنتزعهم إنتزاعاً. وهذا ما نعمل له إن شاء الله في هذا الكتاب.

فالواجب علينا إذن أن نحطم هذه الأقاويل وأن نحطم أصحابها إن كان لا بد من تحطيمهم بلا شفقة، وأن نضع من جديد أقاويل صارمة ومبادىء قوية تدعو إلى العلم المطلق بلا قيد أو شرط، وتمدح العلوم كلها وتمزق الجهل وكل ضعف فكري تمزيقاً لا يبقي باقية... يجب أن تكون تعاليمنا وثقافاتنا كلها قائمة على أنه لا يوجد علم يضر ولا جهل ينفع، وأن كل شر إنما يرجع إلى الجهل، وكل خير إنما يصدر عن العلم. والعلم هو العلم المطلق، العلم بكل شيء، وأننا لا يمكن أن ننال بالجهل شيئاً، ولا أن يفوتنا بالعلم شيء وأنه لا رجاء في أخلاق ولا في دين ولا في شيء من الأشياء الجميلة إلا بالمعرفة، وأن ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدهم كل أنواع الإستقلال والسيادة لا يعود إلى فساد في الأخلاق، ولا إلى خلاف في الرأي والقلوب، ولا إلى شيء مما يحسبه الجاهلون... وإنما يعود إلى شيء واحد فقط: يعود إلى الجهل بما به قوة الآخرين، أي إلى الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها...

كيف نصبر بعد اليوم على قوم يذمون لنا العلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية والفلكية والطبية والفلسفية، وينشدون الأناشيد في مدح التصوف والزهد والدجل والشطح والرقص الديني ومدح القذارة والأمراض والجهالة والجنون والبله؟ كيف نحترم هؤلاء؟ أم كيف نرجع إلى كتبهم ونجعلها مرجعاً من

أهم مراجع الدين والثقافة والعقل ثم نطبعها وننشرها وندعو إليها وندرسها في معاهدنا ومدارسنا لنخدر بها من بعدنا كما خدرنا بها من جاؤوا قبلنا لتكون السلسلة متواصلة، وليكون الشقاء مضموناً.

إن الله جلت قدرته إنما نظم هذا العالم هذا النظام العظيم الرائع وحكمه هذا الحكم الذي لا إختلاف فيه ولا اضطراب بالعلم به وبنواميسه وقوانينه وقواه وأسراره. وإننا نحن أيضاً لن نحكمه أو نحكم شيئاً فيه ولن ننظمه أو ننظم شيئاً فيه إلا بهذا العلم أيضاً. وإن أنفسنا ووجودنا منه فلن نحكمها أو ننظمها إلا بالعلم الطبيعي، أي بعلمها من ناحيتها الطبيعية. وشيء هو وسيلة المولى عظم شأنه لحكم العالم وتنظيمه كيف نذمه ونكرهه أم كيف نستطيع أن ندرك نظاماً وحكماً بدونه؟

* * *

ومن اللازم هنا أن نعلم أن القرآن قد أشاد بفضل العلم والعقل أعظم إشادة، وعلق عليهما الخير والسعادة والفلاح، وامتدحهما بكل أساليب الإمتداح، وذم الجهل والضعف العقلي بكل عبارة، وجعلهما شعار الخيبة والفساد والفسوق والكفر والضلال... وأن نعلم أنه قد وصف المؤمنين بالعلم والفكر والتدبر وبالألباب والنهي والإستبصار والإعتبار وبكل لفظة تؤدي هذه المعاني، ووصف الكافرين والفاسقين والضالين بالجهل والغباء والغفلة وبكل عبارة تعطي هذا المعنى... وقد حكي عن أصحاب السعير أنهم حكموا على أنفسهم بأنهم ما كانوا من أصحاب النار إلا لأنهم لم يكونوا من أصحاب العقول قائلاً: "وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير" فسجل الله عليهم في كتابه بأن فقدهم العقل والسمع – والسمع هنا يراد به سمع الإعتبار لا سمع الأذن – هو ذنبهم الحقيقي فقال معقباً على قولهم هذا "فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير" وذنبهم الذي اعترفوا به هو أنهم لم يكونوا يسمعون أو يعقلون. وليس هناك تدليل أعظم من هذا التدليل على جلالة شأن العقل وسماعه، وعلى ما في ضعفه ونقصه من شقاء وسوء عقى. وقد أراد الله أن يذم الإنسان في موضع وضع فيه نفسه وضعاً جر عليه الوبال وعلى من معه فيه ومن حوله فلم ير تعالى أبلغ في الذم والإنكار عليه من نعته بالجهل فقال: "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

http://www.ithar.com

الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً"... بل حكي في موضع من مواضع الإشادة بالعلم قوله تعالى "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، فحكم بأن العلماء سيخشون الله لا محالة وأن من ليسوا علماء فلن يخشوه لأن تركيب هذه الآية اللفظي يرجع إلى: "لا يخشى الله إلا العلماء." والقرآن بالإجمال قائم على جملتين: الثناء على العقل والعلم، وذم الجهل وضعف العقل. ومن العبث محاولة إثبات هذه القضية بالشواهد، فإنها قضية مسلمة لا خلاف فيها ولا خفاء. ولكن الخلاف قد يقع في المراد بالعلم حينما يطلقه القرآن. فقد يحسب كثيرون ممن انحرفوا عن فهم كل شيء أن المراد به هو العلم الديني فقط، أي العلم بالنصوص وشروح الشراح وتعليقات المعلقين القائلة: هذا حلال وذاك حرام وهكذا... ولكن لا ريب في أن هذا المصير في فهم العلم القرآني خطأ فاضح، بل المراد بالعلم – حيث أطلق – ما هو أعم وأشمل، أي يراد به المعرفة من حيث هي معرفة بلا نظر إلى موضوعها. فكل معرفة علم. والقرآن قد أطلق العلم ولم يقيده بالعلم الديني، فمن قيده فقد قيد إطلاق الله وإطلاق كتابه. بل إن مساق ألفاظ العلم في الكتاب ووضعها في موضعها صريح في أن المراد به ما أعم وأشمل، وهذا جلي عند من تتبع موارد الآيات ببصر نافذ. ولينظر القارىء إلى قوله تعالى: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً هو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون." وليس من الممكن أن يدعي بأن المراد بالعلم هنا هو الديني، بل المراد علم الإجتماع وعلم النفس، فهو الذي يدل على أن الحروب وإن كانت في ظاهرها وفي أوائلها القريبة شراً وبلاء إلا أنها قد تكون في عواقبها ونتائجها الأخيرة خيراً. إذ قد تقدم الإنسانية وتخدم المعارف والعلوم والمخترعات التي تبقي فوائدها... وقد تكون إصلاحاً وتطهيراً لكثير من أخلاق المتحاربين ورداً وردعاً لمطامعهم، ومفيدة لأشياء كثيرة يدرسها علماء النفس والإجتماع والتاريخ... وليس يخفى اليوم على أحد من العلماء أن هذه الحرب التي لم تصب البشرية بحرب أشد منها هولا تنطوي على فوائد علمية وخلقية ونفسية وقانونية لا تخصى... وكذلك كانت الحرب الماضية وكذلك ستكون الحروب المقبلة. ومن هنا كان قوله تعالى: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم"... الآية من الناحية الإجتماعية العلمية في غاية من السمو وصدق الدلالة. وإن مما يدخل في دائرة الإعجاز أن يكتشف مثل هذه النظرية في الجزيرة العربية منذ

ثلاثة عشر قرناً من الزمان، فلا مفر من الإذعان لمنزله.

ثم لينظر القارىء إلى قوله تعالى من سورة النساء وهو يقسم المواريث: "آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً. فريضة من الله. إن الله كان عليماً حكيماً." ولينظر ما المراد بالدراية المنفية عنهم هنا وما المراد بالعلم المثبت لله! لا شك أن المراد بهما دراية وعلم غير الدراية والعلم الدينيين.

وقال تعالى إنباء عن يوسف الصديق: "قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم." وعليم هنا لا يقصد به العلم بالحلال والحرام والواجبات والمستحبات الشرعية. ولكن هو العليم بالشؤون الإقتصادية والمالية وبطرق الجباية وتنمية موارد الثروة تجارية وزراعية وصناعية... بل يمكننا أن نقول بدون أن نخشى الغلط: إن كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين والجهل والبله مذمومين في القرآن لا يراد به العلم والعقل في الدين ولا الجهل والبله فيه، وإنما يراد شيء آخر أعم وأشمل.

وما من ريب في أن من يعلم الأشياء بالوسائل العلمية التجريبية أحق بوصف العلم ممن يعلم ذلك من طريق الألفاظ دون فهم، وممن يعلم الحلال والحرام الدينيين من غير الحكمة. وأيهما أحق بوصف العليم؟ الذي يعلم خبث الزنا والربا والخمر وغيرها وأضرارها الصحية والعقلية والإجتماعية والنفسية والقانونية بالوسائل العلمية التجريبية والإستقرائية، أم الذي يعلم ذلك من طريق النص بدون عقل ومن طريق الشروح والجدل الفقهي؟ وأي الرجلين أقرب إلى إجتناب هذه الخبائث وتركها لأنه مقتنع بخبثها؟ وأي الناس أولى بنعت العلم: الذين يتركون الشرك وعبادة الأصنام والمخلوقين لأنهم علموا فساد ذلك ومضاره الإجتماعية والنفسية والعقلية، أم الذين لقنوا تحريم ذلك تلقيناً مجرداً من الإدراك الحقيقي؟ وأيهم أجدر بهذا الوصف الجميل: أقوم وهبهم الله عقولاً ممتازة كبيرة عبقرية فشحذوها ثم استخدموها في إختراع أشياء عظيمة أسعدت الإنسانية كلها ونجت بها من ويلات كانت تعانيها منذ وجدت، وقدمت إليها أموراً كانت محرومة منها أيضاً منذ وجدت، أم قوم ذوو عقول ضيقة حرفية تقليدية، عكفوا في زوايا مجهولة منتبذة وراحوا يهذون ويكتبون، وليس لهم من سامع ومن مفكر فيهم وفيما يكتبون سوى الغباوة: راحوا يكتبون في تكفير من يصنع كيت وكيت، وفي تفسيق أو تضليل من يأتي كذا أو كذا، وفي

http://www.ithar.com

تقسيم الأحزاب والأوراد اليومية والشهرية والصباحية والمسائية وتعديدها، وفي تقسيم البدع الدينية إلى واجبة ومستحبة ومباحة ومكروهة وحرام، وفي سرد طبقات الأولياء وحشد كراماتهم وخوارقهم ومخاريقهم وغير ذلك من الأمور التافهة التي شغلت أكثر الرؤوس؟ لا أرى أن العقلاء يختلفون في الجواب عن هذه الأسئلة أو يختلفون في من هم أولى بأوصاف العلم والعرفان. فالذين يزعمون أو يظنون أن العلم والعقل الممدوحين في الإسلام هما الخاصان بالأمور الدينية فقط قوم واهمون.

ومن الأحاديث المشهورة الدالة على أن العلم في إطلاق الشرع غير ما ذهب إليه هؤلاء قوله عليه السلام في قصة تلقيح النخل (أنتم أعلم بأمور دنياكم.)

ومما يجب التنبيه إليه هنا – لأن الذين ورثوا عن هؤلاء الشيوخ كراهة المعارف لا يفتأون يغلطون ويخلطون فيه – إن العلم لا يمكن أن يكون شراً ولا أن يكون داعياً إلى الشر والفساد والإجرام والطغيان. وذلك أنهم هبوا – وخاصة في هذه الأيام التي تفاقمت فيها ويلات الحرب – يصرخون منادين بسقوط العلم زاعمين أنه هو الذي شب هذه الحرب، وهو الذي يقدم لها الوقود فيزداد إضطرامها وإلتهابها... وقد نادى كثيرون من خطباء المساجد وخطباء الجمعيات في هذه الأيام بمقاطعة علم أوروبا والبراءة منه! وسألوا الله مخلصين – على ما زعموا – أن يخلص العالم والإنسانية من هذا العلم ومن أهله! ثم ختموا دعاءهم وإدعاءهم ودعايتهم بمطالبة المسلمين والمخلصين بالرجوع إلى الدين ونبذ كل شيء سواه. فكأن الدعاية ضد العلم لا تزال قائمة ولا تزال متصلة الحلقات منذ كان أولئك الشيوخ هم الطرف الأول لهذه الحلقة، وكان هؤلاء الخطباء والوعاظ هم الطرف الآخر لها.

والذي يجب أن يقال وأن يعلم رداً على هؤلاء وبياناً للحقيقة: أن العلم ليس هو الذي أوقد هذه الحروب، ولا هو الذي أمر بها، ولا هو الذي دعا إلى إلقاء القنابل على المدن وعلى غيرها... ولكن الذي أمر بذلك كله هي الأحقاد والمطامع والأنانية والميول الشريرة الموروثة عن عصور الجهالة... فالعلم لم يأمر معلني الحرب بأن يعلنوها ولم يأمر ملقي القنابل أن يلقوها. وإنما أمرهم أغراضهم ومصالحهم وحفائظهم الذاتية أو ما اعتقدوه مصالح وأغراضاً... ووظيفة العلم والعقل هي إنارة الطريق وفتحه فحسب. وهذا كقوله تعالى" وهديناه النجدين

"أي الطريقين: طريق الخير والشر. وقوله تعالى" فألهمها فجورها وتقواها."وقوله" إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً. "والعلم والعقل لا يفعلان غير ذلك. وطباع الإنسان الأخرى هي التي تعين سلوكه وإتجاهه... وهما لا ذنب لهما، بل إنهما يعينان على تخفيف وتلطيف ما تجره الأحقاد والطباع الظالمة من شقاء وعذاب. وكم للعلم والعقل من وقاية وحماية وخدمات في هذه الحرب وغيرها ولولاهما لكان الشر أعم وأتم. فالعلم خير كله والجهل لا شيء منه خير. ولو كان العلم هو الذي يشب الحروب لما وجدت في عصور الجهل مع أنها كانت في تلك العصور أكثر. فالعلم مثلاً هو الذي صنع الطائرة والقنبلة والمدفع ولكنه ليس هو الذي أشار إستعمالها في الشر والظلم كما أن الله هو الذي خلق الإنسان وخلق عقله وقواه وخلق الوجود كله وخلق المواد الأولية التي تصنع منها الطائرة والقنبلة والمدفع والمتفجرات وسائر المهلكات. ولكنه ليس هو الذي أمر بإستعمال هذه الأشياء في الإهلاك والتدمير والتخريب والإبادة. ومن قال إن العلم يلام على هذا لزمه أن يلوم الذات العلية لإيجادها هذه الأشياء ولإيجادها الإنسان وإعطائه العقل والذكاء الذي يستعمل في الشر!

* * *

http://www.ittrar.com

الإنسان هي أم سلعة؟

أما قضية تحريم التعليم على المرأة فهي من أغرب القضايا التي تمر بالتاريخ البشري. وهذا التحريم يشبه في معناه ومرماه تحريم النظر عليها بإنتزاع آلته منها. بل لا ريب أن عمى الجهالة أفتك وأشد ضرراً من عمى الحس. ولو أن قائلاً قال: إنه يجب إبطال الحواس كلها وغيرها من أعضاء المرأة، فلا ترى ولا تسمع ولا تشم ولا تذوق ولا تلمس ولا تمشي ولا تفكر ولا تعمل – أي بأن تبطل فيها جميع الأعضاء التي تكون بها الرؤية والسمع والشم والذوق واللمس والمشي والتفكير والعمل والحركة لئلا تستعمل إحدى هذه الحواس والأعمال في فساد أو فجور أو خروج على الآداب المحترمة في عين الرجل: لو أن قائلاً قال هذا لما كان مبعداً في هذا القول ولا ظالماً أكثر من إبعاد وظلم هؤلاء الذين يقولون بتحريم تعليم المرأة وتحريم الكتابة عليها، لأن هذا التعليم في زعمهم قد يكون سبباً في فسادها أو فجورها أو شرودها أو عملها شيئاً يغضب أنانية الرجل الظالم المستبد الأناني.

إن تاريخ قضية المرأة مع الرجل تاريخ طويل مملوء بالظلم والأنانية والجهل. ويمكن أن يقال إجمالاً أن الرجل والمرأة وجدا – أول ما وجدا – بدائيين فطريين ليس بينهما شيء يذكر من تمييز أحدهما على الآخر ومن التفريق بينهما من الناحية الإجتماعية، حالهما تشبه إلى حد كبير حال المخلوقات الأخرى الآن التي هي دون الإنسان مباشرة. وما حكاه القرآن عن آدم وحواء يدل دلالة تكاد تكون صريحة على أنه لم تكن بينهما الفروق الموجودة اليوم وقبل اليوم بين الرجل والمرأة، بل لم تكن بينهما فروق تذكر من ناحية الإتصال بالحياة وناحية إتصال أحدهما بالآخر وإتصالهما بالآخرين. ثم بعد هذا الوجود البدائي راحا يتطوران في الوجود، وراح يتطور نظر أحدهما إلى الآخر، وبدأ التعقيد والتمييز يدخلان على حياتهما ويدخلان عليهما، كما هي العادة والسنة الطبيعية الإلهية في وجود ا لأشياء بسيطة غير معقدة ولا متمايزة ثم وقوعها تحت سلطان التعقيد والتمييز. ومن المشاهد أن التعقيد والتمييز والتفريق في وجود الأطفال أقل كثيراً منه في وجود الكبار، وإن هذه الأشياء تنمو مع نمو الطفولة ودلوفها إلى الأنوثة والرجولة... ثم أخذت تتعاظم وتتكامل مطامع الرجل وشهواته في المرأة، كما

أخذت مطامعها وشهواتها هي أيضاً تتعاظم وتتكامل فيه. فصار تلهبه عليها وتطلبه لها قوة طاغية، كما كان كذلك تلهبها هي وتطلبها إياه. فأضحى كل منهما طالباً مطلوباً محباً محبوباً. وكان من المظنون أن يتساويا في العرض والطلب وفي القوة والضعف، وأن يكون خضوعه لها كخضوعها هي له. ولكن قوة طبيعية، ووظيفة إلهية، وحالة لا مرد لها تدخل في هذه المسألة فتقضي على المرأة بأن تكون موضع الإخصاب، وأن تكون الحامل المرضع الحاضنة، وأن تكون الحائض المتعبة، والوالدة المجهدة، وأن تكون هذه العمليات كلها شاقة مرهقة قاضية بأن تكون المرأة أقل في ميدان الحياة والعمل من الرجل وأكثر تبعات، لإتصال الأولاد الصغار بها دون الآباء ولحوقهم إياها. فكانت من أجل هذه الأمور وغيرها مضطرة محتاجة للإستعانة بالرجل. فعلم الرجل حاجتها وإضطرارها إليه، فأدخل المسألة في باب المساومة، ووجدها فرصة مواتية دانية لفرض سلطانه وفرض حكمه المطلق. فلم تجد المرأة بداً من الإستسلام والخضوع لعجزها عن الحرية والإستقلال. وقد وجدت في هذا الإستسلام والخضوع في البدء بعض الراحة والإطمئنان، لأنها بذلك تخلت عن كثير من التبعات وألقت بها على الرجل وأعانها عليها... وبهذا تم تسليم المرأة تسليماً يكاد يكون بلا قيد أو شرط للرجل، وجاءت شروط هذا التسليم بأن يكون الرجل هو الملك المالك وهي العبد المملوك، وأن يكون الآمر الناهي وأن تكون المطيعة المنفذة، وأن يكون إجمالاً بيده مصيرها وتصريفها والحكم عليها كيف شاء وكيف شاءت شهواته وأنانيته ورجولته البدائية غير المهذبة. فراحت هذه الطباع والميول تتحكم وتبتكر وتخترع من الفروض والواجبات على المرأة ما أرهقها وأعجزها وقعد بقواها عن العمل، وما أورثها هذا العجز الذي يشبه أن يكون طبيعياً فيها، وهذا الفرق المبين بينها وبين الرجل في المدارك وفي كل شيء... وقد استطاع الرجل أن يتحكم فيها تحكماً عجيباً وأن يثقلها بل أن يقتلها بأحكامه الجارفة الطاغية. فكان له – على حسب ما شرع لنفسه وما شرع له واضعو القوانين وهم من الرجال – أن يسترقها وأن يجعلها سلعة تباع وتشترى، وتوهب وتستوهب، وأن يستمتع بها كيف أراد، بالزنا القهري، أو المتراضى عليه، بالجعل والأجر أو بالزواج أو بما يسميه زواجاً وبما لا يعد ولا يحصى من الصور التي كلها إرغام.

وكان نظره إليها إجمالاً وحكمه فيها مثل نظره إلى ما يتحصل عليه بالبيع

والشراء ومثل حكمه فيه. وكان له أن يفعل كل ما يرضي غرائزه بدون معارضة وبدون قانون يمانع ويحاكم أو يعاقب. فكان من بعض أحكامه عليها أن تمنع من النظر البتة وأن يوضع على عينيها حجابان كثيفان يحولان بينها وبين الإبصار خيفة أن تنظر إلى رجل آخر وهذا يغضب غيرة مالكها وسيدها. والحجاب الكثيف المتجاوز للحدود الشرعية الموجود اليوم بقية من بقايا ذلك الحجاب. وكان أيضاً من بعض أحكامه أن يضع رجليها في القيود طول حياتها أو زمناً طويلاً من حياتها، وأن يمنعها الخروج مهما كانت الأغراض، وأن يحرم عليها الضوء والشمس والسماء، وألا يبيح لها الكلام ولا الملكية – أي ملكية الأموال والعقارات – وأن يأبى عليها إبداء الرأي والتعليم، وأن يقضي عليها بأنها ليست إنساناً وأنها إن كانت إنساناً فليس لها روح...

وفي القانون الروماني أن للرجل على المرأة السيادة المطلقة حتى إن له بقتلها إذا شاء، وليس لها معه حق التملك. وعند اليونانيين أن عليها حقوقاً وليس لها حقوق. ويرى الرومان واليونان أنها كشيء امتلك مثل جميع الأشياء التي تمتلك بالفتح أو بالشراء أو بالتنازل، فهي عند الرجل – أي زوجها – كفرسه أو كسلاحه، له أن يؤجرها ويقرضها ويبيعها. وكانت عندهم أمة شرعية، لزوجها عليها الحقوق التي له على ماشيته وعبيده. ويرى أفلاطون في كتاب الجمهورية أن الواجب تداول المرأة كسائر الأشياء... ومن الدعاوى التي ادعاها الرجل على المرأة أنها لا تدخل الجنة مهما عملت من الصالحات... إلى أحكام كثيرة طويلة فرضتها قوة الرجل على ضعف المرأة... وقد بقي كثير من هذه الأحكام.

ولقد جاهد الإسلام جهاداً عظيماً في سبيل المرأة لإنقاذها من هذه المظالم وللنجاة بها من هذا الجبروت الممقوت: ففرض لها حقوقاً عظيمة، ورفع عنها آصاراً وأغلالاً، وعمل أعمالاً جليلة لإعطائها النور والحياة الصحيحة... وفك عنها تلك القيود وسجل حقوقها الواجبة المشروعة في القرآن، تتلى في الصلوات وفي كل مكان، وأمر بتعليمها وتعلمها ووجه إليها الخطاب والأمر والنهي كما وجه إلى الرجل سواء. ورفع عنها كل إكراه وقهر في كل صلاتها وحياتها – رفع عنها إكراه الأب والأخ والأقارب، كما رفع عنها إكراه الزوج وأقارب الزوج. وقد فرض لها الميراث كما فرض للرجل وأكثر من وصاياه بها ولها. وقد صنع لها وفي سبيلها كل شيء جميل طيب. وكان من النصوص القاضية الفاصلة في هذه

http://www.ithar.com